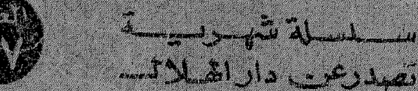
كتاب الهلال

فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف
عباس محمود العقاد







كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٢٧ — رمضان ١٣٧٢ — يونيه ١٩٥٣

No. 27 — June 1953

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر

التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) — مصر والسودان ٨٥ قرشاصاغا— سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — الحجاز والعراق والأردن ١١٠ قروش صاغ — فى الامريكتين ٥ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلنا

كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

فاطمة الزهراء
والفاطميون

تأليف

عباس محمود العقاد

تمهيد

ترد الاشارة الى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية ، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار • ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية •

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الاسلامية وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص ، ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه ان البيت اذا احتاج الى الخبز فهو أولى به من الجامع

ولدت لأبوين من أهل السنة : أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة ، وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة ، وربما زارنا أحد أخوالى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبا الى المسجد القريب أو عائدا منه الى داره

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله ، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون

بالخدمة فيها • وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار ، لأنها أسماء اخوتى أجمعين : محمد وابراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس ، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة ، واسمى أنا منسوب الى عم النبى لا الى الأمير الأسبق : عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى • لأننى ولدت قبل ولايته ، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب « حلمى » جريا على ما تعودته المدارس فى تلك الحقبة ، وبقيت منسوبا الى اسم « محمود» وهو كذلك من أسماء النبى ، ولم يكن لأبى اخوة ، وانما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسمزينب، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة

ورثت هذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه ، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية ، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية ، فاستفدت منه كثيرا فى دراسة تاريخ الاسلام

استفدت منه اننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على انكار حق أو انكار فضل أو انكار نسب أو انكار ما من ضروب الانكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب

ولم استفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل ، لأن قداسة العظمة الانسانية تحجب عندى جميع

هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين ، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى البـــاكرة عصمتنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الامام ، وانه لم يكن له من السياسة نصيب ، فبحثتها بحث الاشاعات ولم أعطها من بادىء الرأى شأنا أكبر من الاشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل ، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب ، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى اننى قاربت سيرالعظماء الاسلاميين و « النبويين » لأرضى ذهنى ، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها ، فعظماء الاسلام عندى أعلام انسانية باذخة تخولهـا مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم ، وليست غاية الأمر فيهم انهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حيـاة الزهراء ، فانها ــ سلام الله عليها ــ قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد ، أو تكتب لها ترجمة لانها زوج على ، أو تكتبلها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمـة لأنها هى فاطمة ، ولانها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الاسلام الىالزمن الأخير

وهذا الذى قصدت اليه بكتابة هذه السيرة ، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين الى فاطمة ، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهــج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها

ونعود الى الوراثة فنقول : ان أول ما نضيفه الى بيــان قوة اليقين ، أو بيان القوة الايمانية فى نفس الزهراء، انها ورثتها من أم وأب ، وقد غطى ميراثهـــا من أبيها على كل ميراث ، ولكنه اذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت اصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى ، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها ، وما أخلده من ميراث



القسم الأول

فاطمة الزهراء

* أم الزهراء
* نشأتها ...
* زواجها ...
* بلاغتها ...
* فى الحياة العامة
* شخصية الزهراء
* الذرية الفاطمية

أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلا من أخبار السيدة خديجة ـ أم الزهراء ـ رضى الله عنهما ، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الافاضة فى الاخبار الا فى التفصيل

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أمٌ ذات فطنة ورجاحة ، وانها رضى الله عنها كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية : عاطفة المحبة الزوجية ، وعاطفة الأمومة ، وعاطفة الايمان

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش، لانها جمعت الى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة ، وأهلها جميعا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم الا كان علما فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية ، وكلاهما ينتهى نسبه الى لؤى بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك الى هذا النسب

المعرق فى النبل والسيادة ، فهى فاطمـــة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك الى لؤى بن غالب ، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها الى ذلك الجد الأعلى ، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم ، فكانت قافلتها الى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام

وأهم من هذا جميعه بالنســبة الى زوجة نبى والى جدة الأئمة من بيت النبوة انها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبّعا الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الاسود معه الى اليمن ، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه ، وقال السهيلى فى الروض الأنف : « ان تبعا روع فى منامه ترويعـــا شديدا حتى ترك ذلك وانصرف عنه » فلا يبعد أن روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الالهى اذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه

□

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت اليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه الســـلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها ، فركبت الى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود ، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها . اذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم الى كاهن أو كنيسة،

وانما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى اليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به الى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى الى عقيدة أفضل من هذه العقيدة ، وينسب اليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت ، ويروى كتّاب السيرة انه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له ، وقال لها : « انه السفير بين الله وبين أنبيائه ، وان الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به ولا أن يتسمى باسمه .. »

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة ، لا يعنينا أن نستقصيها . لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين ، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للابانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة من كان منهم على الجاهلية ، ومن تحول عنها الى النصرانية

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى انها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والاسرائيلية ، لانها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان

وقد روى عنها كلام قالته للنبى عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد اليها ، وقال لها : « لقد خشيت على نفسى ! » فكان كلامها الذى أرادت أن تسرى به عنه وتثبت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علما يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية ، فان الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة

وسحرا ، ولكنها أدركت من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها ، فعلمت انه فضيلة وان النبى الجديد أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة ، وقالت للنبى وقد آمنت انه وحي وليس بعارض من عوارض الجنة : « كلا ! والله ما يخزيك الله أبدا . انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة »

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين ، ولولا انها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هذا طبيعة مميزة وليست طبيعة منساقة الى السماع والتقليد ، فمما نقل عنها انها طلبت الى النبى عليه السلام أن يخبرها اذا جاءه جبريل ، فلما أخبرها قالت له: « قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل ، فقالت : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . قالت : « فتحول الى فخذى اليمنى » وسألته : « هل تراه ؟ » قال : « نعم » . فألقت خمارها وسألته ، فقال : « الآن لا أراه ... » قالت : « يا ابن العم اثبت وأبشر ، فانه ملك وما هو بشيطان »

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحي . ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فان البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر الى جسد الأنثى فى وقت واحد ، ولا سيما بعد الحوار واعادة السؤال مرة بعد مرة ، فلا

موجب اذن لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هـذه الأحاديث

□

وقد رزقت هذه السيدةالبارة صباحة الوجهمع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل ،وصدق من قال ان السعادة لا تتم ، فان هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لمتتم لها نعمة السعادة فىحياتها الزوجية، فانها تزوجت فى صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة ابن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سمى باسم هنـــد (لعله دفعا لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السـيدة فاطمة وقتل فى جيش الامام فى وقعة الجمـــل على أرجح الأقوال ، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى،واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول ولكنه على كل حال زواج لميكتب له الدوام ، وقد أعرضت عن الزواج بعـد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضـــله علما من أعلام النساء فى التاريخ ، ولا شىء أدل على رجاحة لبها من أناتها فى اختيار زوجها ، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر اليها فيما تختار

أما كيف اتصل النبى عليه السلام بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوالتتفق على انه كانبمشورة منعمه أبى طالب، وان أبا طالب قال له فى سنة من السنين : « يا ابن أخى ·

أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان ، وهذه عير قومك قد حضر خروجها الى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالا من قومك فى عيرها فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت اليك» . وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب اليها أبو طالب ، فأجابته على رضى وكرامة ، وقالت له : « لو سألت ذلك لبعيد بغيض لاجبناك ، فكيف وقد سألت لقريب حبيب ؟ »

وقد سافر النبى الى الشام وباع واشترى وربح لهـــا أضعاف ما كانت تربح فى كل عام ، وأعجبها منه انه حين عاد من السفر وكل الى غلامهــا ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها ، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه ، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب ، وعرّضت له بذلك فى حديث أقرب الى التلميح منه الى التصريح

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح، ثم أوعزت الى صديقة لها ـ هى نفيسة بنت منية ـ أن تشجعه عـلى الخطبة ، فسألته نفيسة ذات يوم : « ما يمنعك أن تتزوج؟» قال : « قلة المال » . قالت : « فان كفيت ودعيت الى المال والجمـــال والكفـــاءة ؟ » قال : « ومن تكون ؟ » قالت « خديجة ! » قال : « فاذهبى فاخطبيها »

وروى الزهرى صاحب أقدم السير ان « رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجـر معه فى مال خديجة : هلم فلنتحدث عند خديجة ، وكانت تكرمهما وتتحفهما ، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة ـ هى

الكاهنة ـ فقالت له : جئت خاطبا يا محمد ؟ فقال :كلا • فقالت: ولم ؟ فوالله ما فيقريش امرأة ـوان كانتخديجةـ الا تراك كفؤا لها ••• »

وأشبه الأشياء بأنيكونـ بينالروايات المتعددةـانالنبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم ، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر: «•• انمحمدا ممن لايوازن به فتىمن قريش الا رجح به شرفا ونبلا وفضلا وعقلا ، وان كان فى المال قل فانما المال ظل زائل وعارية مسترجعة ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك » فقال عمها عمرو ، أو ابن عمها ورقة بن نوفل فى رواية أخرى : « هو الفحل الذى لا يقدع أنفه » • وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ، ولم يتزوج عليها فى حياتها الى أن قارب الخمسين

□

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ما عدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية ، وهم : القاسم ، والطاهر ، والطيب ، وزينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، أصغرهم باتفاق معظم الاقوال

وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، أما السيدة خديجة فمن كتاب السيرة من يقول انها كانت فى الاربعين أو فى الخامسة والاربعين ، ومنهم ابن عباس يقول : « انها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها » • وأحرى بهذهالرواية

أن تكون أقرب الروايات الى الصحة • لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمـــرها ، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الاربعـين ، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد ، عدا من جاء فى بعض الروايات انهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم

وقد يرجّح تقـدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى نحو الخامسة عشرة أو قبلها ، لجمالها ومالهـا وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما طول الأمد ، وان كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ ، فمن الكلام عن ذريتهـا منهمـا يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام

□

« عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم •• »

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الالهية

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين ، خلافا لما جرى عليه العرف بين علية القوم ، وهو من تلك العلية فى الذؤابة العليا

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية ، فتأيمت فى نحو الثلاثين

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة

معشر تصغره ببضع سنين ، وكان هذا هو الحظ السعيد في عرف كل انسان عاقل رشيد

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فيغنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام ، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام ، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل انسان عاقل رشيد

أيهما كان خيرا ؟..

هذا الذى كان كما كان ، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد ؟ !

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارىء لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين

فلم يجد محمد الى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع ، بل وجد الى جانبه قلبا كريما وروحا عظيما وسكنا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن اليه خشية فؤاده ، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن اليها انها حنكة السن وحنان الأمومة ، ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانة الحق والفضيلة ، وما عاقبة الصبر على العرواء التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام ، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة الا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش ، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبـــق منه الا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها ـ لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن ذكراها أعواما بعـد أعوام ، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصـــعب الأيام ، وان وفاء كهذا لهو وحده كفاية المســـتقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رؤوم ، فما من شهادة لانسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب انســـان عظيم



نشأتها

اذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجد هو تلك الكلمة الواحدة

درجت فى دار أبويها ، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره فى غير تلك الدار ، وغار حراء

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار ، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها ، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها ، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورا وراء عصور ، لأنه هو أمر الدعوة الاسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد ، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات ؟ ما هذه الهينمة بين الأبوين ؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت ؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر الا اذا رأى ما يخالفه ، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات

أكبر الظن ان الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها ، ولكن الطفل الذى

يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بمألوفات لا تتكرر من حوله ، ويتخـــذ له قياسا للألفة والغرابة منفردا بين أقيسة النفوس

وأكبر الظن انه ينشأ منطويا على نفسه ، مستخفا بما يخف له الناس من حوله ، متطلبا من عادات النفـــوس وطبائعها غير ما يتطلبون

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها ، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنها ، وغير أخيها هند ، وهو أكبر منها ومن أختها ، ولم يكن من عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها ، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات أخوتها الكبار الا ما يحزن ويشغل: ماتوا صغارا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرا مريرا ، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب ، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت الى أختـــين ، لأنهما خطبتا الى ولدى أبى لهب ، ثم أصبح أبو لهب عدوا للابوين يمقتهما ويمقتانه ، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء

جد من كل جانب تركن اليه ، وانطـــواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء : حنان جاد رصين ، ونكاد نقـــول : بل حنان صابر حزين ، يشملها به الأب الذى مات أبنـــاؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنا ونهض به زمنا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال،

وتشملها به الأم التي جاوزت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها ، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين : حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق

وتعلمت الزهراء في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية ، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك انها كانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وانها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء في أكثر أيامها

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها ، فلم تعرض قط لشيء غير شأنها وشأن بيتها، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلجئها اليه حادث لا ملجأ منه ، فلا فضول هنالك في عمل ولا في مقال

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة ، فالصحيح الذي لا مراجعة فيه انها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعته من علي ، وانها صلت به ووعت أحكام فرائضه ، وانها وعت كل ما وعته فتاة عربية أصيلة العرق والنسب ، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع السنين انها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هــــذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفســـها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوية جثمانا يضيق بقوتها ، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف، فانهما مزيج متعب للنفس والجسم معا ، لا قوام له بغــير راحة واحدة : هى راحة الايمان ، وهذا هو التوفيق الاكبر فى نشأة الزهراء ، فانها نشأت فى مهد الايمان اذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها



زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية : «ان عبدالله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبى فقـــال هشام لعبد الله : يا أبا محمد ! كم بلغت فاطمة من السن ؟ قال : ثلاثين سنة ، فقال الكلبى : خمسا وثلاثين • فقـال هشام : اسمع ما يقول ، وقد عنى بهذا الشأن • فقال : يا أمير المؤمنين : سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه »

وتوافق هذه الرواية روايات متعـــددة ، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمـــدية ببضع سنوات ، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة انها عليها السلام قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة

ومن جملة الأخبار يتضح ان النبى عليه الســـلام كان يبقيها لعلى رضى اللهعنه • فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما : انتظر بها القضاء ، أو قال انها صغيرة كما جاء فى سنن النسائى

وفى أسد الغابة انها لما خطبهـــــا أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر : « انت لها يا على ! » فقال على: « ما لى من شيء الا درعى أرهنها » فزوجه رسول الله فاطمة ، فلما

بلغ ذلك فاطمة بكت ، ثم دخل عليها رسول الله فقال : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

وفى رواية ان عليا لما سأله النبى : « هل عندك من شىء ؟ » قال : « كلا » • فقال له : « وأين درعك الحطمية؟» أى التى تحطم السيوف ، وكان النبى قد أهداه اياها ، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده ، فاجتمع له منها أربعمائة درهم

جاء فى أنساب الاشراف للبلاذرى : « فباع بعيرا له ومتاعا فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهما ويقال أربعمائة درهم ، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل •• »

ثم استطرد صاحب الانساب الى رواية أخرى يرتفع سندها الى على نفسه قال : « سمعت عليا عليه السلام يقول : « أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت : والله ما لى شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه » فقال : « وهل عندك من شىء ؟ » قلت : «لا» قال : « فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا ؟ فقلت : هى عندى ! قال : فاعطها اياها »

وفى طبقات ابن سعد ان رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة : « هى لك يا على ! لست بدجال » يعنى لست بكذاب • وذلك انه كان وعد عليا بها قبل أن يخطبها

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة : « ما ألثيت أن أزوجك خير أهلى »

وجهزت وما كان لها منجهاز غير سرير مشروط ووسادة منأدم حشوها ليف ونورة من أدم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان

وعن أنس بن مالك ان النبى قال له : انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمانوطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال فانطلقت فدعوتهم ، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. ان الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لا حقا وأمرا مفترضا وحكما عادلا وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام . فقال الله عز وجل : وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا ، وأمر الله يجرى الى قضائه ، وقضاؤه يجرى الى قدره ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، ثم ان الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم انى زوجت فاطمة من علىّ على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما ، وجعل نسلهما مفاتيحالرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم »

قال أنس : « وكان على عليه السلام غائبا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها . ثم آمر

لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا ، فقال : انتهبوا . فبينما نحن كذلك اذ أقبل على فتبسم اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا على ! ان الله أمرنى أن أزوجك فاطمة ، وانى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة ، فقال على : رضيت يا رسول الله ! ثم ان عليا خر ساجدا شكرا لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم : بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب »

قال أنس : « والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب »

ومن المرجح جدا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته كما جاء فى مسند ابن حنبل ، فيقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت أمضى الزواج، وان نقرت الستر علم انها تأباه، وفى زواج الزهراء قال لها : يا فاطمة ! ان عليا يذكرك . فسكتت ، وفى روايات أخرى انه وجدها باكية ، فذاك حيث قال رسول الله : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج، ولكنهم قالوا انه كان بعد الهجرة وبعد غزوة بدر ، وأرجح الأقوال كما قدمنا انها كانت فى نحو الثامنة عشرة ، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات

□

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط

الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين ، فما من خبر من هذه الاخبار وصل الينا فى كتب السيرة على رواية واحدة ، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر ، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والاعمال أن تتناقض مناقضة القبول والاباء والرضى والانكار ، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائما على المقابلة والموازنة والرجوع الى حوادث الزمن وعادات أهله ، والى الأحرى أن يصدر ممن أسند اليهم القول أو نسب اليهم العمل ، فان الاخبار اذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه

فمن المعقول مثلا أن يؤثر النبى عليا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة ، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من على على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين، ومن المعقول أن يتردد على فى خطبتها لفقره • ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد، لشعوره بأنه مخصوص بها وانه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لا بد له من عمله ، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج الى ما بعد الهجرة ، لأن حياة المسلمين فى مكة ـ قبل الهجرة الى المدينة ـ لم تكن حياة أمن ولا استقرار ، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم الى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة ، فمن كان متزوجا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى

الزواج ، ومن لم يكن فليس أخلق به من ارجاء الزواج الى حين

ذلك كله هو المعقول المألوف ، وهو الأوسط الأمثل اذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح

الا أن التاريخ يكتب للاعتبار ، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر الى الحوادث والنـــــاس ، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز

وها هنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ : كتابته فى الأزمنة الغابرة ، وكتابته فى الزمن الحديث

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثـــة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية فى المســـائل الكبرى فلا يرتبوا حكما قاطعا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات ، فما كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقاربا للاجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه ، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات ، أو فرض تقابله فروض ، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين ، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها الى كتابة طائفة من العصريين يزعمون انهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وانهم يصححونه بهذا التطبيق ، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى ، لانهم أثبتوا فيما كتبـــوه انهم

يزنون بميزانين وينظرون بعينين ، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف

أولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير

فمن هؤلاء من يطالع في الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورا لا شك فيأنها من العيوب فلا يحسبها عيوبا ، ولا يتأفف منها ، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجا وتعويجا حتى يقبلها ! ويفرضقبولها على الناس

فاذا طالع كتبا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين ، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه وتحويل المحاسن الى عيوب ، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب ان لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف

وما منشىء يمسخ الدين ويمسخ العلممعا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم ، فان الدين لا يعلّم الانسان شيئا ان لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء ، وان العلم شر من الجهل ان كان يسوم الانسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع ، فليس هذا جهلا يزول بكشف الحقيقة ، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهى مكشوفة لديه ، فهو شر من الجهل بلا مراء

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص منكتب هؤلاء « العلماء » الذين هم شر من الجهلاء ، وأحدهم قد خصص كتابا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن « يطبق»

ذلك العلم العصرى المقلوب ، فاذا هو منقلب عليه

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنا فى الشرق ـ كتابا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصرى » المقلوب ، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب ، فاذا العيب هو فى الاسفاف ، وكم فى الاسفاف من عيوب، بل من ذنوب

ومن تفاهاته وسفاسفه انه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لانها كانت محرومة من الجمال ، ولم تصدق أن أحدا يخطبها بعد تلك السن ، ثم يقول انها لما عرض عليها النبى الزواج من على سكتت هنيهة ، ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب ، ثم تكلمت فشكت ، لأنها تزوج من رجل فقير ..!

لو كان السند الذى استند اليه هذا « العالم » واضحا ملزما لقلنا انها أمانة العلم ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية

لكن السند كله قائم على ان السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها ، وتقابله اسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ، ولكنه لا يحب أن يراها ، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين ، وان أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه ، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال ، وأن تحرمه احدى البنات

والمشهور المتواتر ان السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى ابانها ، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن ، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين ، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج ، فلا حاجة بالمؤلف الى البحث الطويل ليهتدى الى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى الى الثامنة عشرة ، ولو كانت أجمل الجميلات

وفى وسعه كذلك أن يتصور ان النبى يخص بها ابن عمه ، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية ، فلا هم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه

كل ذلك قريب كان فى وسع « العالم المحقق » أن يراه تحت عينيه ، قبل أن يذهب الى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج ، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال ... ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت اليها لانها لا تعيب ، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة ، فهو الجدير اذن بالالتفات

وكأنما كان « العالم المحقق » فى حاجة الى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة انه شكاية من فقر على بن أبى طالب ، ويسند هذا الفهم الى رواية البلاذرى فى أنساب الاشراف ، بعد زعمه ان فاطمة أبلغت زواجها

بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل ، وانما دهشت لانها لم تكد تصدق ان أحدا يخطبها بعد أن قاربت العشرين

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمي أن تكون الفتاة يائسة من الزواج ، مدهوشة من خطبة الخطيب ، ثم تتعلل العلل وتفرض الشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء ، وليست هي يومئذ من الأغنياء ؟

كلا ! ليس ذلك بالمألوف ولا بالتطبيق العلمي ، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى انه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى ... فهو اذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف

والبلاذرى ـ بعد ـ لم يذكر شيئا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب الى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو : « حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق عن حبشى بن جنادة قال : لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرتعدت فقال : اسكتى ! فقد زوجتك سيدا فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين »

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآستانة ، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة ، فتفسير « الرعدة » بذلك المعنى انما هو من ابداع المؤلف الحصيف!

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه ، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة ، ولا ننبه اليه لقول قائل ان السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال.. فانه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات ، ولكننا ننبه اليه لأنه عبرة المعتبرين

فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الاهواء ، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم ، ويعافه أدب الدين

ونعود الى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول ، فنقول اننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه ان السيدة فاطمة أشارت الى فقر على حين بلغت خطبته لها ، وهو تزويج السيدة أم كلثوم

وبين الخبرين مع هذا بون بعيد

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب انه قال : « لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا : « انك ممن قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن ، وانك والله ان أمكنت عليا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه ، وان أردت أن تصيبى بنفسك مالا عظيما لتصيبنه» ، فوالله ما قاما حتى طلع على يتكىء على عصاه ، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال : قد عرفتم منزلتكم عندى يا بنى فاطمة وأثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله عز وجل ، فقالوا : صدقت رحمك الله ، فجزاك الله عنا خيرا • فقال : أى بنية ! ان الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعليه بيدى • فقالت : اى أبه ! انى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا ، وأنا أريد أن أنظر فى أمر

نفسي • فقال : لا والله يا بنية ! ما هذا من رأيك • ما هو الا رأى هذين •! ثم قام فقال : والله لا أكلم رجلا منهما أو تفعلين ، فأخذا بثيابه فقالا : اجلس يا أبة ، فوالله ما على هجرتك من صبر • اجعلى أمرك بيده • فقالت : قد فعلت! قال : فانى قد زوجتك من عون بن جعفر ، وانه لغلام ، وبعث لها بأربعة آلاف درهم »

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم ـ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غضبه وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير ، وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير اشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة ، وشتان مقال أم كلثوم وما رواه الرواة عن أمها البتول

فاذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الاشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة ، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها ، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها والطافها لها فى رخائها وعسرها ، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت الذى لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه ، فان جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه ، فموضع الغرابة أن نتخيلها

بعد الجهد غير باكية وغير آسية ، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة علىمزاج حزين وأسى دفينعلى أمها العزيزة لم يفارقها مدى السنين

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله انه انسان عظيم، وانه كان أبا مكلوم الفؤاد ، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم ، ولن يسكت عنه الا عامدا عالما بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن ، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أنيتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام : « مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما »

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها ، فانه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها ، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب اليها فقال لها : انى أريد أن أحولك الىّ • فقالت : فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى • قال رسول الله : قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحييت منه ، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال : يا رسول الله ! انه بلغنى انك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازلى ، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله • والله يا رسول الله للمال الذى تأخذ منىأحب الى من الذى تدع• فقال رسول الله: صدقت • بارك اللهعليك ! فحولها رسول الله الى بيت حارثة

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى : « ان

بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة ... وكانت فيه كوة الى بيت عائشة رضى الله عنها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة فعلم خبرهم ،وان فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى ان ابنى أمسيا عليلين فلو نظرت لنا أدما نستصبح به ! فخرج على الى السوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة ، فاستصبحت ... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل — وذكر كلاما وقع بينهما — فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

الى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده : « انه صلى الله عليه وسلم كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى الباب ويقول : السلام عليكم أهل البيت ، ويقول : الصلاة ! ثلاث مرات ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ... وكان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ، ثم يثنى بفاطمة ، ثم يأتى بيوت نسائه

« وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ،

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة انه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيهـــا وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هذا فى سبيل الله • فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها ، ثلاث مرات ، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما ســـقى كافرا منها شربة ماء »

□

وانتظمت الحياة فى السكن الجديد الذى أوى الى ظـــل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته ، اذ كان رزق على من وظيفة الجندى ، ووظيفته من فىء الجهاد ، وقد كان قليلا فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية ، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم ، وكلما رزق وليـــدا جاءته حصته على قدر ، شأنه كشأن كل أب من المسلمين

وما لبث البيت الصغير أن ســـعد بالذرية ، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن ، وزينب وأم كلثوم

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام

في محتدم الدعوة والجهاد ، وقد أوشكت كل كلمة قالها في تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا في الصدور والأوراق

فلما ولد الحسن سماه والداه حربا فجاء رسول اللهفقال: أروني ابني ما سميتموه ؟ قالوا : حـــرب ! قال : بل هو حسن ، وهكذا عند مولد الحسين ، وعند مولد المحسن ، وقد مات وهو صغير

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي ، والنبي يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ، ولم يلبث أن حفظها المشرقان

حـــزقّه (١) • حـــزقّه ••• ترقّه • ترق عين بقـــه

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الاطفال راكب على كتفيه ، فيتأنى في صلاته ويطيـــل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، وفي احدى هـــذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد : نعـــم المطية مطيتك !

بل ربما كان على المنبر ، فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه اليهما وينزل من المنبر ليحملهما، وهو يقول : « صدق الله العظيم ! انما أموالكم وأولادكم فتنة ! »

وكان اذا سمع أحدهما يبكي نادى فاطمة وقال لهـــا : « ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين ان بكاءه يؤذيني ؟ »

وقد جعـــل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ،

---

(١) الحزق : القصير

ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان • ففى احدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات الله عليه الى قربة فجعل يعصرها فى القدح، ثم جعل يعبعبه،فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن • قالت فاطمة : كأنه أحب اليك ؟ • قال : انما استسقى أولا !

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم : « أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد ! »

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعا من أبوة الأب الصغير ، فكانت فاطمة تقول اذا رقصت طفلها :

وابأبى شبه النبى   لست شبيها بعلى

وكانوا يتغايرون علىهذا تغاير المحبين،الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضا أن يتنافسوا عليه

□

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة : سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ، ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة آدمى قط ، من ساعات خلاف وساعات شكاية ، فربما شكت فاطمة وربما شكا على ، وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة ، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله • انما هو اعتزاز فاطمة بنفسها واباؤها أن تهمل حيث كانت ،وانما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح الى ما دونه ،

وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب انسان

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف ، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل الى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء • والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه ، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر ، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهموما وخرج منه منطلق الأسارير ، فيسألونه فيجيب : « ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس الى ! »

ومرة من هذه المرات بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين ، ونمى الى فاطمة أن عليا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة ، فذهبت الى أبيها باكية تقول : « يزعمون انك لا تغضب لبناتك ؟ »

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط انه يرضى بما يغضبها ، وقد عرف أبوها ما تعنى• لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة ، فصعد المنبر والغضب باد عليه ، وقال على ملأ من الحاضرين : « ألا ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليا ، ألا وانى لا آذن • ثم لا آذن • ثم لا آذن • انما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها •• »

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة ، ولكننا نعلم ان هذه الفتاة أسلمت

وبايعت النبى وحفظت عنه ، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين ، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبى طالب من ذوى قرابتها ، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على أنفة من أنفات فاطمة ، أو لعلهـــا نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها ، وان أباها العـــرف فى حالة المودة والصفاء

□

ولا نحسب أن حياة الزهراء والامام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا اليه ، فان كتب السيرة تستقصى كل جليـــل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى ، وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صلوات الله عليـــه بعد وفاته ببضعة أشهر ، وكان على قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عن أبيهـــا ، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة ، وهو يومئذ أجل الأمور

بلاغتها

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب بلاغات النساء : « ... لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت في لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لثحنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرّى الليل عن صبحه

(١) الثجن بسكون الجيم وتحريكها الطريق الوعر (يمانية)

وأسفر الحق عن محضه ، ونطـــق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين ، وكنتـم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبســـة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطـرق (١) وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى وبعد ما مـنى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها باخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون، حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغـــاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق (٢) المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغـــــرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألفاكم غضابا ، فوســـمتم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل ... »

الى أن قالت : « وأنتم الآن تزعمون أن لا أرث لنا أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنـون . أيها المسلمة المهاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى ؟ لقد جئت شيئا فريا ، فدونكما مخطومة

(١) الماء المطروق
(٢) الجمل القوى

مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »

ثم انحرفت الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

انا فقدناك فقد الأرض وابلها

واختل قومك فاشهدهم ولا تغب »

هذه رواية لخطاب الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتين قال أبو الفضل ؛ « ذكرت لأبى الحسين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء ــ يشير الى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت ــ يزعمون انه مصنوع وانه من كلام أبى العيناء فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى انه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ »

ونسبت الى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه ، وانها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت : « يا أنس ! كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب ؟ » ثم بكت ورثته قائلة :

اغبـر آفاق السـماء وكـورت
شمس النهـار وأظلم العصران
فالأرض من بعـد النبى كئيبـة
أسفا عليه كثيرة الرجفـان
فليبكه شرق البـلاد وغربهـا
ولتبـكه مضر وكل يمـان
وليبكه الطـود المعظم جـوده
والبيت ذو الأسـتار والأركان
يا خاتم الرسل المبـارك ضوءه
صلى عليـك منزل القـرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبـر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شـم تربة أحمـد
أن لا يشم مدى الزمان غواليـا
صبت على مصـائب لو أنهـا
صـبت على الأيام صرن لياليـا

وقالت على قبره أيضا :

انا فقدناك فقد الأرض وابلهـا
وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنـا
لما نعيت وحـالت دونك الكثب

ومضى آنفا انها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منهما وهما :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة
لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
انا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيهما كما يرى القارىء اقواء ، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى ، ولعل شطرا منهما حل محل شطر فى نقل الرواية

□

نقول : ان الخلاف فى أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا نحب أن نخوض فيه لانه خلاف على غير طائل ، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين جميع النقاد ، فانه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له ، يسلمه جميع المخالفين

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر ان ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر ، وان قائله يعده فى نفسه قبل القائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر ان سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه ، فان حفظه فانما يحفظه منقولا أو مكتوبا بعد حفظه

فاذا قل الخلاف فى هذا فعلام اذن يكثر الخلاف ؟

أتراه يكثر حين يقال ان السيدة فاطمة تحسن هـــذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها ؟

ان هذا النصيب من البلاغة اذا استكثر على الســـيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لا يستكثر عليه

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء ، وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات ، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لابيها في مشيتها وحديثها وكلامها ، ومنهممن لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن « الرياشى عن عثمان بن عمرو عن اسرائيـــل بن ميسرة بن حبيب ، عن المنهال بن عمرو ، عن عائشة بنت طلحة ، عن عائشـــة أم المؤمنين انها قالت : « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة ، وكانتاذا دخلتعليه أخذبيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه ، وكان اذا دخل عليها قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها ، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه ، فأسر اليها فبكت ، ثم أسر اليها فضحكت ، فقلت : كنت أحسب لهذه المرأة فضلا على النساء فاذا هى واحدة منهن ، بينما هى تبكي اذا هى تضحك . فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت : أسر الى فاخبرنى انه ميت فبكيت ، ثم أسر الى انى أول أهل بيته لحوقا به فضحكت »

وما قالته السيدة عائشة عن المشـــابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعا ، ويزاد عليه فيحديث السيدةعائشة ان امرأة فيفضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلا على سائر النساء فى حلمها ورصانتها. ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البـــلاغة اذا نسب اليها ؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه ؟ ولمـــاذا تستعظم على زوجة الامام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته ، وهى مضرب الأمثال ؟ ولمـــاذا تستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار معالذكاء واللب الراجح ؟

أما نسبة الشعر الى الزهراء فالخطب فيه أهون منذلك فهو لا يسلكها فى الشاعرات ان ثبت ، ولا يضيرها ان لم يثبت ، ونحن الى جانب الشك الكبير فيـــه أقرب منا الى جانب القبول ، وليس بعيدا على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتا يحكى بها حزنه وبثه ، فان النظم هنا أقرب الى لغة العاطفة وعادة النحيب ، ولكن الســيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقـــام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء

فى الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها ، تزيدها عكوفا عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معينا عليها فى كثير من الايام غير زوجها

ثم توفى النبى صلوات الله عليه فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا ، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة ، لأن الخلاف فيها كان خلافا على ميراث أبيها : ميراث الخلافة ، وميراث التركة القليلة التى أعقبها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى احدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه ، وذاك ان الخطر الأكبر فى ذلك اليوم انما كان من فتنة السقيفة : سقيفة بنى ساعدة ، حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد ابن عبادة ، تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه ، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين : أمير من الأنصار

وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبـــادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقـــادها وهو يأبى الا أن « يستبد الانصار بهذا الأمر دون الناس فانه لهم دون الناس » ... ثم أصر على ابائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم : « أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبـل وأخضب سنان رمحى » وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى .. وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى »

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره ، وهو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يحضأ نارها بين على والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد ، وما كان من همـه أن ينصف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالســـيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية

وما من شك فى خطر هذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة ، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر ، ولم يطلبها ، بل كان مشتغلا بدفن الرسول ودعى الى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيـم

يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته ، حتى هم عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والانصار والمهاجرين ، وقبل أن تنجح المسعاة من أبى سفيان فى خفائها ، وقد كاد أن يعلنها

□

وكان على فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان قائلا: « يا أبا الحسن ! هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فابسط يدك أبايعك ! »

ويقول عمه العباس : « يا ابن أخى · هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى · فانا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب »

فيجيبه على : « لا والله يا عم ! انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج »

ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ الدهاة من بنى أمية ، فما للخلافة معدى عنه ان كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين،وما للبيعة هناك جدوى ان تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ ، فان

يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان ، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة ، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعا لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم ، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الاسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم ، ولا أن يفتح للاسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحا أعظم وأقرب مما فتحوه

وآمن على بحقه فى الخلافة ، ولكنه أراده حقا يطلبه الناس ولا يسبقهم الى طلبه ، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر كأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والامام يوما أو أياما بعد وفاة النبى عليه السلام ، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك ، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعا انهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم ، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم ، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه ، وما مات أحد منهم وله من الدنيا نصيب يأسى عليه

□

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة ، أو ترى أن قرابة النبى أحق المسلمين بخلافته ، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة ، وكان

هذا رأى طائفــة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم ، أيبايعون أم يتخلفون ، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس على نقض البيعة ، وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التى بيتهــا أبو سفيان ، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على على ويتحفز للوقيعة ، فصده على وعرض له بذكر الغششة والمخادعين ، ثم قال له : « انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » ، فلمـا يئس من هذا الباب طرق بابا آخر لعله يلج منه الى مأربه ، وذهب الى العباس يقول له : «امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » ... ثم يقول : « انك والله لأحق بميراث ابن أخيك » فيرده العباس كمـــا رده على ، ويكاد الخلاف ينتهى عند هذا وينطوى بانطواء الكلام فى مسألة الخلافة ، لولا مسألة « فدك » أو مسألة الميراث التى اختلف فيها سند أبى بكر وسند فاطمة مرة أخرى ، وأوشــك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بنت رسول الله

وخلاصة الحديث فى أمر « فدك » انها قرية كان النبى يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة الى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث . ما تركناه صدقة .وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول

الله عن حالها التى كان عليها» ، ويقال ان الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه ـ زكريا ـ « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود» .. وان أبا بكر قال لها : « يا بنت رسول الله ! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك ، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت »

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة « ان أبا بكر قال : يا ابنة رسول الله ! والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وانه قال : ان الأنبياء لا يورثون . فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فمن يشهد بذلك ؟ فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها . فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك ان مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟ قالت : أصنع بها كما يصنع بها أبى ! قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك ، قالت : الله لتفعلن ؟ قال : الله لأفعلن . قالت : اللهم اشهد . وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك »

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر :

«انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها»، فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما • فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام ، فتكلم أبو بكر فقال : «ياحبيبة رسول الله، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشـــة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك انى مت ولا أبقى بعده ، أفتراني أعرفك وأعرف فضـــلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله ؟ الا انى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث • ما تركنا فهوصدقة» • فقالت: «أرأيتكما انحدثتكما حديثا عنرسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟» قالا : «نعم» • فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها منسخطى؟» • قالا : «نعم سمعناه من رسول الله» • قالت : « فانى أشهد الله وملائكتـــــه أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه» • فقال أبو بكر: «أنا عائذ بالله تعالىمنسخطه وسخطك يا فاطمة»، ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق ••• ثم خـــرج فاجتمع اليه الناس فقال لهم : «يبيت كل رجل منكم معانقا حليته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم • أقيلونى بيعتى »

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى الى مقطع للقول متفق عليه • غير أن الصدق فيــه لا مراء ان الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق ، وان الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينـــة

عليه ، ومن أسخف ما قيل انه انما منعها فدك مخافة أن ينفق علىّ من غلتها على الدعوة اليه،فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدا بايعهم لمال أخذه منهم ، ولم يرد ذكر شيء من هذا فى اشاعة ولا فى خبر يقين ، وما نعلم من تزكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الاول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك ، فقد كان يكسب برضى فاطمة ويرضى الصحابة برضاها ، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع ، وانما هو الحرج فىذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين ، رضوان الله عليهم أجمعين

□

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها ، بعيدا من الخصومة ، بعيدا من زمانها ، بعيدا من الشبهة فيها ، لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزلعنها باختياره ، لا يدعوه الى ذلك داع غير وحى ضميره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة : « ان فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فسألته فاطمة اياها فقال : ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل ، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم ، فوهبها مروان

لأبى ولعبد الملك ، فصارت لى وللوليد وسليمان ، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى ، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى ، فاستجمعتها ، وما كان لى من مال أحب الى منها ، فاشهدوا انني قد رددتها الى ما كانت عليه»

□

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شؤون بنيها والابتعاد من الحياة العامة ، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها ،وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه ،واحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا ، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية ، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها . أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة ، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة ايمان بحقها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهمل لها حساب

وفاتها

قلنا في « عبقرية محمد » :

« حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحارت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة ، وهو ولا ريب يجري على قانون مطرد في جميع طبقات الأحياء ، وان كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة، أو هي أقرب ما نستطيع الوصول اليه

« وأهم هذه الملاحظات التقريبية انه يجري على سنة المكافأة والتعويض في معظم حالاته ، فيقابل النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر ، ويقابل القصور في مزية من المزايا بالاتقان في مزية أخرى

« فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير في طور الولادة والحضانة ، فيقابل هذا ان الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف ، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد فناء الكثير

« والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطن الواحد ، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها ،

وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحيـــاء السفلى

« ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التىيستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه ، فاذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه ، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور ، فاذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصورالاخرى، أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد الا بثمن غال يحسب عليه ، ويؤدى حسابه للنوع على نحـــو من الأنحاء

« والانسان هو أقدر المخلوقات الحيـــة على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده

« فهل يجوز لنا أن نقول ان العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم باصلاح شؤون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية ؟

« ان قلنا ذلك فانما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا اليها ، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه ، فغاية مبلغها عندنا انها تســتوقف النظر للتأمل والمراجعـــة ولا تفضى بنا الى الجـــزم أو الى التغليب

« فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتـــزوجوا ، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام

« وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية ، أو رزقوا ذرية كلها أناث ، أو رزقوا ذرية من الاناث والذكور ولم يعيشوا ، أو عاشوا ولم يعمـــروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة

« وتوارىخ العظماء فى جميع نواحى العظمة ، وفى جميع الأمم ، وفى جميع العصور ، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعـــة ، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء ، ويدخل فيهـــم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون ، ولا يصعب على أحد أن يدير بصره الى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه ، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمـــود سامى البارودى وحافظ ابراهيم

« فاذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظـــة وأن نتأمل مغزاها ، وجاز لنا أن نفهم أن اصلاح شؤون النوع الانسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال ، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمـــة ان لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل ؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته ، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه ، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه الى أقصى الزمان ؟

« نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية ، ونرى تكافؤا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار »

□

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب : فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين

مات الذكور من ذرية محمد صغارا لم يجاوزوا سن الرضاع ، وعاش الأناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب

وكانت الزهراء نحيلة سمراء ، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها انها أسرع أهله لحوقا به ، فلم تمض ستة أشهر ، وقيل أقل من ذلك ، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة

وكانت تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فاذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها ، زارها يوما وهى مريضة فقال لها : « كيف تجدينك يا بنية ؟ » فقالت : « انى لوجعة » . ثم قالت : « وانه ليزيدنى انى مالى طعام آكله ... » فاستعبر عليه السلام وقال : « يا بنية ! أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ! »

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى وقال : « تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة »

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال ، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وزوجاته ، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم ، وقد شكا زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها ، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه !

الله أكبر !

مثل محمد يعلو على اشفاق المشفقين ، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الاشفاق ، فذلك هو الاعظام غاية الاعظام ، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه :

وبعيد بلوغ هاتيك جدا
تلك عليا مراتب الأنبياء

ان محمدا يبكى لانه يرى أحب الناس اليه وأقربهم منه جائعة مرهقة ، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها ، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية ... ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين : « ما برهان النبوة عند محمد ؟ ! »

الله أكبر ... ان لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون ؟

□

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يعرف من وصفه ،فان العرب لوصافون وان من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر

العرب على وصف الصحة والسقم ، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب ، وكل ما يتبين من كلامهم انه الجهد والضعف والحزن ، وربما اجتمع اليها اعياء الولادة فى غير موعدها ، ان صح انها أسقطت « محسنا » بعد وفاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار

ونعود فنقول انها ضريبة النبوة ، وكم للهداية منضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات !

□

وحضرها الموت وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها ، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها ، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل : « يا أمَه ! ائتينى بثيابى الجدد » ، فلبستها ثم قالت : « قد اغتسلت ، فلا يكشفن لى أحد كنفا » ، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها : « أتستطيعين أن تواريني بشىء ؟ » قالت : « انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير » فعمل لها نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه فقالت : « سترتمونى ستركم الله .. » وتبسمت ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها

وكانت وفاتها ، على القول الأشهر ، ليلة الثلاثاء لثلاث

خلون من رمضان سنة احدى عشرة للهجرة ، ودفنت ليلا حسب وصايتها كما دفن رسول الله

في كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنــون كأنما هي آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى

فاذا تقدست في المسيحية صورة مريم العذراء ، ففي الاسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول



« شخصية » الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى وزوجة امام ، وأم شهداء

ولكن لا يتضح هذا الوضوح ، ولا يبين هذا البيـان ، انها تأخذ مكانها هذا « بحقها الشخصى » أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتـابة عن الزهراء ، فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجـرى الزمن أجيالا طوالا ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هـذا ، وفيما يلى من العصور

لم يعرف التاريخ نظيرا لثبات بنى على وفاطمة على حقهم فى الامامة ، أو فى الخلافة

حوربوا فيها زمنا ، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس فى فضلهم عليه ، كيزيد بن معـاوية • فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعا ، وحاربوا فيها كما حوربوا ، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سـنة ، ثم مائتين ، ثم ثلثمائة سنة ، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات ، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس ، ومعهم فى المشرق والمغرب أعوان وأتباع ، وقد جدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء على وفاطمة فى كل مكان ، وصنعوا بهم ما كان خليقا أن يستأصلهم استئصالا أو يرغمهم على اليأس والتسليم

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين ، وخطر لهم كل خاطر الا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف ، ويقعدوا مع الخالفين

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم

فاذا كان مرجع هذه الخصال الى وراثة ، ولا بد لها من نصيب من الوراثة ، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن على ، بل هى الى ميراثهم من الزهراء أقرب منها الى ميراثهم من الامام

بعض الاخبار يفيد ان صح ، وان لم يصح ، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا ان عليا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر الا بعد وفاتها

ان صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة ، وهى اعتقاد الناس فى ذلك العصر ان القضية قضية الزهراء وان الامام يجاملها فلا يغضبها ، وانه كان يرى ان الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه ، فان لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعى اليها

وفى غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة ، وربما كان من تلك الاخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقى اليه بالا ، وهو فى

هذا الباب أدل من كثير ، كالخبر الذى روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير

رووا ان الصديق رضى الله عنه قام على المنبـــر يخطب الناس ، فما هو الا أن حمد الله وأخذ فى خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتا نحيلا يهتف به : « ليس هـــذا منبر أبيك ، انزل عن منبر أبى ... »

والتفتوا فاذا بالصائح هو الحســـن بن على ، ولما يبلغ الثامنة ، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع فى نفسه : « ابن بنت رسول الله ؟ صدقت والله ... ما كان لأبى منبر ، وانه لمنبر أبيك »

وسمع على بالخبر فأرسل الى أبى بكر رسولا يقول له : « اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث ، ولم نأمره »

قال أبو بكر : « انى أعلم . وما اتهمت أبا الحسن »

وليست الزهراء ولا ريب هى التى أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال ، ولكن الطفل يفهم عن أمه فى هـــذه السن ما يغنيه عن الأمر والايحاء ، ولعل الحسن كان قد سمع نقاشا يتكرر بين أبويه فى هذا الأمر ، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة ، ثم نهى عنها فلم يعاودها

□

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبـــات على الحق الذى يعتقده صاحبه ، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم

كانت شديدة الاعتـــزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت

مفطورة على يقين التدين ، وكانت ذات ارادة لا تهمل فى حساب شأن من شؤونها ، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها انها كانت ذات ارادة لا تنسى فى الحساب

كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها انها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها ان أسباط رسول الله يشبهون رسول الله

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين : كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليه ما ورثته من أمها ، آمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته ، غير مدعو ولا مأمور

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة انها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين ، حتى وهمت ان أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت : « دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقلت : يا أبة ! ألا تتوضأ ؟ فقال : مم أتوضأ يا بنية ؟ فقلت : مما مست النار • فقال لى : أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟ »

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة

عائشة ، انها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشـــيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة فقالت : ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها ، واستغربت مرة أن تكون فاطمـــة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك الى جوار رسول الله فى مرض وفاته ، ثم علمت انها ضحكت لانها سمعت من أبيها انها لاحقة به عما قريب

أما انها كانت رضى الله عنها ذات ارادة لا تهمل فقـــد بدا ذلك فى أمر زواجها ، وفى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر وعمر ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتهابصدد المبايعة قبل وفاتها

وقد يكون من دلائل الارادة في المرأة خاصة انها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء انها لا تتكلم حتى تسأل ، وانها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما لا تعلم ، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه

ولا ننس أن الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة ، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها ، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها ، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة ، ومن يلحق بهم عاره ويبرأون منه أو يخلعونه ، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشىء ولا يبالى به أحد ، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

ان الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة

وبعد الاسلام وجب حفظ الأنساب ولجأوا اليه فى تدوين الدواوين كما لجأوا اليه فى ميادين القتال ، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم : انتسبوا . ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام ،صونا للنسب الشريف ، ودفعا للأدعياء من طلاب الخلافة ، فلم

يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الاسلام ، ولم ينهض منهم قط امام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية ، ولم يكن الشك فى النسب مطعنا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية ، ولم يزل أمرهم كذلك الى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية • أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم الى السيدة فاطمة ، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب اليها رضى الله عنها

من ذاك ما روى عن المأمون انه قال يوما لعلى بن موسى الرضا : «بم تدعون هذا الأمر ؟ قال : بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها ، فقال له المأمون : ان لم يكن ها هنا الا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب اليه من على أو من فى مثل قدره ، وان كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فان الحق بعد فاطمة للحسن والحسين ، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان، فان كان الأمر كذلك فان عليا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى على ما لا يجب له »

قال رواة هذا الحديث : « فما أجابه على بن موسى بشىء»

وظاهر ان على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء :

تلوا باطلا وجلوا صارما

وقالوا : صدقنا ؟ فقلنا : نعم!

والا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة ـ وقد رزقوا اللسن والفصاحة ـ أن يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى

يقال فى الرد على كلام المأمون ، وأقربه على اللسان ان عليا ان كان قد استولىعلى حقه فهم ورثته، وان كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق ، وقد سمع خلفاء بنىالعباس كلاما كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين ، وأيسره أن أحدا من جدود بنى العبـــاس فى حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها

الا أن دعاة الدولة العباسية انما كانوا يدفعون دعـوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين الى الزهراء ، الا أن يدعوا عليه انه حمل السيف وخرج للقتـــال أو أعلن العصيان

قال العتبى : « كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة ، فكان الربيع يحمّل عليه المهدى فلا يلتفت اليه ، حتى رأى المهدى فى منامه شريكا القـــاضى مصروفا وجهه عنه ، فلما استيقظ من نومه دعى الربيع وقص عليه رؤياه ، فقال : يا أمير المؤمنين ! ان شريكا مخالف لك ،وانه فاطمى محض • قال المهدى : على به ! فلما دخل عليه قال له : يا شريك ! بلغنى انك فاطمى • قال شريك : أعيذك بالله يا أمير المؤمنـــين أن تكون غير فاطمى • الا أن تعنى فاطمة بنت كسرى ! قال : ولكنى أعنى فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم • قال شريك : أفتلعنها يا أميرالمؤمنين؟ قال المهدى : معاذ الله • قال : فماذا تقول فيمن يلعنها ؟ قال : عليه لعنة الله ! قال : فالعن هذا ـوأشار الىالربيعـ فانه يلعنها ، قال الربيع : لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها• فقال شريك : يا ماجن ! فما ذكرك لسيدة نساء العـــالمين

وابنة سيد المرسلين فى مجالس الرجال ؟ قال المهـــدى : دعنى من هذا • فانى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك الىَّ ، وما ذلك الا بخلافك علىَّ ، ورأيت فى منـــامى كأنى أقتل زنديقا • قال شريك : ان رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وان الدماء لا تستحل بالاحلام ، وان علامة الزندقة بينة • قال : وما هى ؟ قال : شرب الخمر والرشى فى الحكم ومهـر البغى • قال : صدقت والله يا أبا عبد الله • انت والله خير من الذى حملنى عليك »

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة ، فوشى بأناس انهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المســـاس بهم ، واضطروا الى التعلل لهم بغير تلك العلة

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباســـية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصـــحاب الدعوة ، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فىحق العم وابن العم،والموازنة بين حق العباس عم النبى وحق على ابن عمـــه ، الى انكار النسب بتة ، وساعدهم على ذلك تفرق الائمة الفاطميين فى الارجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والالقاب ، فطعنوا فى انتساب الفاطميين الى الســـيدة فاطمة ، وأذاعوا عنهم ذلك المنشـــور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب ، واشترك فى هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كمـــا شملت غيرهم ، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم

مثال هذا ان صاحب كتاب جمهرة الانســـاب ، وهو

الفيلسوف الحكيم ابن حزم ، لم يسلم من فتنة هذه الغواية، فقال وهو يتكلم عن ذرية اسماعيل بن جعفر الذى ينتسب اليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالاسماعيلية :
« وادعى عبيد الله القائم بالمغرب انه أخو الحسن البغيض هذا ، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر بن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر ابن على بن اسماعيل بن جعفر ، ومرة ادعى انه ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل بن جعفر ، وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن اسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله الا جاهل »

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك فى مؤلف واحد ونسابة واحد

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف ، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى ، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للأموية ، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الاسماعيلية ، وبلغ من كراهته للاسماعيليين انه تحول من المذهب الشافعى الى المذهب الظاهرى أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل ، لأن مذهب الاسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الامام

بل قد بلغ من كراهته القوم انه لا يطيق أن يذكرالرجل منهم بلقبه المتعارف عليه ، فيلقبه بالبغيض بدلا من الحبيب، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب الا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة الى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه : « ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز الا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة ، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له ، وهذا لا يجوز أصلا ... » . وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين الى المناقشة فى معنى الحديث القائل ان فاطمة سيدة النساء، وانه لا يعنى انها أفضل نساء العالمين !

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء ، ولكننا نقول ان هواه قد جنح به الى قبول ما ليس بحجة فى اثبات نسب أو دفع نسب ، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والاثبات

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل ، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول : اننا لا نزعم اننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية ، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه

القسم الثانى

.. والفاطميون

* الفاطميون ...
* النسب ...
* الباطنية ...
* الباطنية الفاطمية
* حسن بن الصباح
* بناة وهدامون .. ومهلومون
* حضارة مختضرة

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون ، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء اسماعيل ابن الامام جعفر الصادق، ويسمون من أجل هذا بالاسماعيليين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحيانا باسم آل البيت، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء الى الزهراء ، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على انهم اسباط النبى عليه السلام، وانهم أبناء الوصى على بن أبى طالب ، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها، ويقولون ان الانتساب الى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ، ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما تغليب اسم الاسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم الى اسماعيل بن جعفر الصادق ، وقولهم انه هو الامام بعد أبيه ، وبهذا الاسم يتميزون من أبناء السيدة فاطمة الآخرين ، وهم ذرية موسى الكاظم ، وهو الأحق بالامامة فى مذهب الاماميين الاثنى عشريين

وقد كان الامام جعفر الصادق وصى بالامامة بعده لابنه الاكبر اسماعيل ، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنـــه موسى الكاظم ، وقيل فى أسباب ذلك انه علم ان اسماعيل يشرب الخمر ، وقيل ان اسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد الى أخيه

أما الاسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز ، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الامام المعصوم ، والبـــداء لا يجوز على الله ، ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذاك

ومن الاسماعيليين من ينفى موت اسماعيل فى حيـــاة أبيه ، ويقولون انه شوهد بعد تاريخ الاشهاد على وفاته ، وانما أشهد أبوه على وفاته خوفا عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة ، واستدلوا على هذا بالاشهاد على وفاته وتوقيـع الشهود عليه ، اذ لم تجر العادة بمثل هذا الاشـــهاد لولا الحيطة والتقية

والخلاف بين الاسماعيليين وبين سائر الفاطميـين قائم على امامة اسماعيل ، والاماميون الذين لا يسلمون الامامة لاسماعيل وذريته طوائف متعددة ، أهمها وأكبرها طائفة الاماميين المعروفين بالاثنى عشريين ، لأنهم ينتهون بالامامة الى محمد المنتظر بن الامام حسن العسكرى ، وعندهم انه سيظهر فى زمانه الموعود ، ولهذا يدعون بتعجيـــل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الاماميون على اعتقادهم عصـمة الامام فى تبليغ

شؤون الامامة ، لانه موئل السؤال والفتوى فيأحكام الدين والدنيا ، فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الاحكام

ويضيف الاسماعيليون الى أسباب العصمة عقيدة التأويل ، فان احكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن ، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم ، والائمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤتمون

ولهذا يسمى الاسماعيليون بالباطنيين ، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب ، بل يقولون ان كل موجود على الأرض فله نظير فى الفلك الأعلى ، وان مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم ، وكان الاماميون من عهد على رضى الله عنه يؤمنون بالهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما اليه من كتب النجوم ، ولكن الائمة الاسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم لانهم لاذوا بالخفاء فى عهد انتشارها وازدهارها ، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوبا منهم فوق علمهم الراسخ بشؤون الامامة فى الدنيا والدين ، فاذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الامام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر ويتحين أوقات الفلك لاظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الامامة ، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الاعداد ، فمن

قديم الزمن يعتقد أصحاب النجـــوم سرا خاصا فى عدد السبعة وعدد الاثنى عشر ، ويستشهدون على ذلك بعـــدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الاسبوع وعدد فتحات الوجه ، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى اسرائيل ، وعلى هذا يدور الخـــلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنى عشر ، ولكل منهم فيه كلام طويل

وللاماميين فروق يبسطونها بين النبى والامام والحجـة والنقيب ، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان ، والامام قائم فى كل زمان ، وقد يكون الامام اماما مستقرا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده ، أو اماما مستودعا فهو يحمل أمانة الامامة لضرورة موقوتة ثم يردها الى صاحبهـا ولا حق له فى التوصية لغيره • أما الحجة فهو لازم فى الخفاء اذا كان الامام ظاهرا فى العلانية ، لأن الامام الظاهر عرضة للضرورات فلا بد معه من حجة يرجع اليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة ، أما اذا استتر الامام فلا بد له من حجة ظاهر، وقد يسمون الامام بالناطق أو بالصامت تبعا للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه

أما النقباء فالغالب انهم دعاة أو وكلاء ، ولا بد لهم من أئمة يرجعون اليهم فى كل زمان

□

أعلنت وفاة اسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم ،فانعقدت الامامة بعده لابنه محمد ، وارتحل محمد من الحجـــاز الى الرى ، اما لأنه لم يطلق منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة

العلويين ، واما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين ، وقد لقب بالامام المكتوم لانه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد الى بلد ومن قطر الى قطر كلما تنبهت اليه العيون ولاحقته الظنون ، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله الى المغرب وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق • أما القائلون بانتسابه الى ميمون القداح - كما سيلى - فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى «مأمور» (١) بين الروايتين توفيقا محتملا جد الاحتمال فيقول ان محمدا المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته ، وان اسم « ميمون » كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل سفره من المشرق الى المغرب ، فمن الرواة من يزعم انه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيما بجوار حمص ورحل الى مصر وهو يورى بالرحلة الى اليمن ، ومن قائل ان بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الاسماعيلى سرا قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر الى تحذيره ، ومن قائل انه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين
Polemics on the origin of the Fatimi Caliphs.

الى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة ، وتتفق الروايات على انه حينما سافر الى مصر وانتقل منها الى المغرب كان مطاردا وكان على رأسه جعل لمن يأتى به حيا أو ميتا حيث كان

□

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة فى المغرب الى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا ، وكان من ولاة الحسبة فى بغداد

جاء فى وصفه من كتاب ـ البيان المغرب فى أخبار المغرب ـ لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الاسماعيليين ـ « فاختاروا منهم رجلا ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى ... فسار أبو عبد الله هذا الى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل ... ورأى فى الموسم قوما من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيل كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها ، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه ... ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل الى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه ، فلما حان رجوعهم الى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم : أنا رجل من أهل العراق ، وكنت أخدم السلطان ، ثم رأيت

ان خدمته ليست من أفعال البر فتركتهـــا وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال ، فلم أر لذلك وجها الا تعليم القرآن للصبيان ، فسألت أين يتأتى ذلك تأتيا حسنا فذكر لى بلاد مصر ، فقالوا له : ونحن سائرون الى مصر وهى طريقنا ، فكن فى صحبتنا اليها ، ورغبوا منه فى ذلك ، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم الى مذهبه ويلقى اليهـــم الشيء بعد الشيء الى أن اشربت قلوبهم محبته ، فرغبوا منه أن يسير الى بلادهم ليعلم صبيانهم ، فاعتـــذر لهم ببعد الشقة ، وقال لهم ان وجدت بمصر حاجتى أقمت بها ، والا فربما أصحبكم الى القيروان ، فلما وصلوا مصر غاب عنهـــم فيها كأنه يطلب بغيته ، ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم : لم أجد فى هذه البلاد ما أريد ، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك ... »

□

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيدالله فى المغرب ، فالذى عنيناه هنا هو الاشـــارة الى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعـــوة ، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوبا لا طالبا وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله اذا استطاع ، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الاسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال اليه قبيلة كتامة القوية بعـــددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد الســـيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح

فاستقدمه فوصل الى جبال الأطلس قبيل انتهاء القــــرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لاقامة عرشه فى افريقية وبسط كلمته من ورائها الى الأقطار الاسلامية ، فان ملك المهدى فى المغـــرب قد دام أربعا وعشرين سنة الى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجـــرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين الى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهدا لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

□

ان تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفــــرد له المجلدات الضخام ، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ ٠ اذ كانت هذه الدولة نموذجا يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التـــــدبير والمصادفة ٠ فهى الدولة التى قامت بين ست دول أو أكثر من ست دول اسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبـــــة قيامها ، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على انكارها ، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها اليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل الى هذا القرن العشرين ٠٠٠ فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو « الطابور الخامس » كما يسمى فى العصر الحديث ، ومنها تسخير العلم

والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لانفاذ سياسة بعد أخرى ، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية ، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس اليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة ، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه الدولة حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته ، ولسنا فى صدد الافاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها ، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب الى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد ، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها ، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث

الذنب

الدعوى المنتظرة هى أقوى الدعاوى، وهى كذلك ـ ومن أجل ذلك ـ أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة

والمقصــود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية ، وهى قوية لانها لا تأتى عفوا ولا يكتفى المدعون فيها بابدائهــا وترك السامعين وشأنهم فى قبولها أو الاعراض عنهــا ، بل هم يدعونها ويحتالون على ايرادها موردالصدق وتمثيلها فى صورة الكلام السائغ المحقق ، ثم يكررونها ويلحــون فى تكريرها ويتحينون الفرص لنشرها فى مظان الاصـــغاء اليها والرغبة فى اثباتها

واذا كانت البواعث التى تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة والحاحا على الحاح ، فهى تتوارد من جهات كثيرة وترجع الى الظهور كرة بعد أخرى ، كلما خيف عليها أن تضعف ، وكلما تعــــاظم الرجاء فى التحدث بها والالتفات اليها

ان الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا

وهى من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة

لأن البواعث التى تمليها تريب السامع حين تنكشــف

له ، وقد يكون الالحاح فيها مشككا لمن يسمعها وكاشفا للغرض والهوى من ورائها

واذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط الى الروايات والأقاويل ، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها ، ومن لم يكن منهم مخترعا لروايته لم يجهد ذهنه فى التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد ، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب ، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك

□

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة ، وكانت البواعث اليها متعددة متجددة ، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصوما كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه ، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب الى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم ، فهذه هى

الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين ، وكلهم ذوو سلطان وذوو براعة وافتنان ، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والايمان

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم الى النبى عليه السلام ، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الاسلامية الذين تسرى بيهم دعوى آل البيت ، غير مستثنى منهمأتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص ، وهو عهد النقص والادبار الذى يكثر فيه طلابالزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل ، وعلى الانصاف الواضح أو على الجور الصراح

كان مصير الخلافة الى الفاطميين نذيرا بزوال عروش كثيرة ، منها عروش العباسيين فى بغداد والاخشيديين فى مصر والأغالبة فى افريقية الشمالية والأمويين فى الأندلس ، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبديل والانتقال

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين ، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين ، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين انهم كانوا يدعون الى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق الناس باسم آل البيت فى رأى أتبـــاع الدولة الجديدة ، وبلغ من ايمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعـدهم لولاة عهد من العلويين ، كما فعـل الرشيد والأمين • ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمـة العلويون الى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيـــدة فى الامام المستور ، ثم شاعت الدعوة الى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات الى بنوة محمد عليه السلام • فقـد يقال ان العباسيين أبناء العبـــاس عم النبى وان العلويين أبناء علىابن عمه أبى طالب •أما الانتماء الى فاطمة الزهراء، فهو انتماء الى بيت النبى نفسه ، وليس الى الاعمام ولا أبناء الأعمام

فى أوائل الدولة العباسية،كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين ، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقينعلى أمل التوفيق بينهمـــا بعد حين ، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده ، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده ان وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العبـــاسية بقيت حتى تضعضعت وكثـر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالهـا ، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمـــة ، وزال عنها عطف العـــاطفين عليها لقرابتهـــا من بيت

النبوة ، فتحول عطفهم الى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد ، وأصبح تشردهم الذى يظن به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء ، وأصبحت دعوة « الفاطميين » وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون، لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن نسبتهم الى فاطمة الزهراء يأتى امتيازهم بحق الخلافة وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين، فأى شيء أقرب الى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بانكار هذا النسب ، ومن حصر الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس ؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا انهم ينتسبون الى ميمون القداح بن ديصان الثنوى القائل بالالهين ، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون الى كل مذهب ونحلة،منهم كما أسلفنا الاخشيديون والأغالبة والأمويون الأندلسيون ، وزاد عليهم من كان تابعا للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية ، بل قيل فيما قيل ان أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى على وفاطمة عليهما السلام ، ونسب الى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى انه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها الى عبد الله بن رزام

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله الى كتابة الاشهاد ببطلان نسـب الفاطميين انه سمع أبياتا نظمها الشريف الرضى يقول فيها :

ما مقامى على الهوان وعندى
مقـول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى
وبمصر الخليفـة العلوى
من أبوه أبى ومـولاه مولا
ى اذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النـا
س جميعـا محمد وعلى
ان ذلى بذلك الجـد عز
وأوامى بذلك الربـع رى

فأرسل الى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول :انك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك ، وقد بلغنا انه قال شعرا ـ هو هذه الابيات ـ فياليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى النقابة ـ نقابة الاشراف ـ والحج ، وهما من أشرف الأعمال ، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر فأمره أن يكتب بخطه الى القادر بالاعتذار وانكار نسـب الحاكم بأمر الله ، فأبى ، فقال له أبوه : « أتكذبنى فى قولى ؟ »

فقال : « كلا ما أكذبك ، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد » فقال له أبوه : « أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك ... وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك ؟ ... » وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى انه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الانكار ، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر ان المهدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله ، وان اسمه الصحيح « سعيد بن أحمد بن عبدالله القداح بن ميمون بن ديصان »

وقد اختلفوا فى نسبته تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ... واختلفوا فى الجد الذى كان مجوسيا أو يهوديا فقيل ان عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله ، وقيل ان عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) من سقوط الدعوة كلها وجاء بعبد (يهودى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة ، وقيل ان أمة للامام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله ونشأ فى بيت الامام منتميا الى أهل البيت .

□

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ، ومنه « ان هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار المتلقب بالحاكم ــ حكم الله عليه بالبوار

والدمار - ابن معد بن اسماعيل بن محمد بن سـعيد - لا أسعده لله - وان من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وان ما ادعوه من الانتساب اليه زور وباطل ، وان هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون ، وللاسلام جاحدون، أباحوا الفروج وأحلوا الخمور وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية ...»

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين ان المعروف عنهم انهم « بنو عبيد ، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى ، وقيل : كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حدادا . وعبيد هذا كان اسمه سعيدا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم انه علوى فاطمى ، ثم ترقت به الحال الى أن ملك وتسمى بالمهدى ، وكان زنديقا خبيثا عدوا للاسلام متظاهرا بالتشيع متسترا به حريصا على ازالة الملة الاسلامية ، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة ، وكان قصده اعدامهم من الوجود لتبقى العالم كالبهائم فيتمكن من افساد عقائدهم ، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به اذا أمكنتهم الفرصة والا أسروه ، والدعاة منبثون لهم فى البلاد ، وبقى هذا البلاء على الاسلام من أول دولتهم الى آخرها ، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، وأخذت الافرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة الى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الاتابكى وتقدمه مثل

صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة ٠٠ »

ومن اعتدل من المؤرخين فى الانكار والسباب ، كابن خلكان ، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها لو انها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه ، وان ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله الى مصر عن نسبه فسل سيفه ، فقال : « هذا نسبى » ثم نثر عليهم الذهب وقال : « وهذا حسبى » وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر بغير عناء ان الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية ، لأن الذين وقعوها من الاشراف العارفين بالأنساب قد أكرهوا على توقيعها ، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين الى ديصان الثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب الى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الاسلامية بنحو أربعة قرون ، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينا بديدان وحينا بزندان أودندان ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة اليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين ، وانما قيل عنه انه كان على ثروة كبيرة وعاون اسحاق بن ابراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون

وادعاء الموقعين للوثيقة ان خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح

فى قصور الخلفاء من التسرى واقتنـــاء الاماء ، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح الى التنطس فى الطعام وحرم المباح منه بدلا من اباحة الحرام !

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الاولى قصة التبشيع والتشـنيع فى نسبة الفاطميين تارة الى المجوس وتارة الى اليهود ، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخلافة حتى تسقط دعواهم فى الاسلام وترجع نسبتهم الى أبعد الملل عن الديانة الاسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص ، ثم يقال عنهم ما لا يقال فى جميع المجوس واليهـــــود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنيـــة عن التكذيب ، لان ابن‌طباطبا الذى قيل انه سأل‌المعز عن‌نسبه عند وصوله الى مصر قد توفى قبل مقدم المعز اليها بأربع عشرة سنة،وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكرتاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال : لعله أمير آخر ... مع ان اسم « المعز » هو الذى دار عليه مثل الســـيف والذهب المشهور ، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه ، فكل جواب أيسر وأنفـــع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له الا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة

وقد روى ابن خلكان أيضا ان العزيز بالله صـعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الابيات :

انا سمعنا نســـبا منكرا

يتلى على المنبـــر فى الجامع

ان كنت فيما تدعى صادقا
فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وان ترد تحقيق ما قلته
فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة
وادخل بنا فى النسب الواسع
فان أنساب بنى هاشم
يقصر عنها طمع الطامع

فان صحت هذه الرواية فالتحدى فيها باظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف ، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون الى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم ، وانما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى باظهار نسب كنسب « الطائع » العباسى ، مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة الى العزيز وحمله الهدايا اليه واعترافه بنسبه وانه تلقى منه الشكر «لاخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو امامته ومحبته لآبائه الطاهرين »

وقد تواتر ان عضد الدولة هم بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده بعض الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له : « انك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك انه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ولكنك اذا أقمت علويا فى الخلافة كان معك من تعتقد انت

وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك ٠٠ »

وقد أشار صاحب « الروضتين فى أخبار الدولتين » الى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنـــه يعلم ان صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفـة الفاطمى ، وانه انما حول الخطبة الى الخليفة العباسى بعـــد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين ، وانه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى ولم يكن لصـــحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير ، ومرجعه الأهم الى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة ، اذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة ، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع ، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين ، وقد تفاقم النـــــزاع بين رؤسائهم حتى سرى الى الألقاب ، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة ، وكان الأيوبيون منالكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين

ومما يلاحظ ان بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية ، فأبو المعـــالى الفارسى يقول فى كتابه « بيان الأديان » ان ميمونا القداح من مصر ، وجملة المؤرخين يقولون عنه انه من فارس ، وكل منهم يحيل الى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالســـــند الصادق فى مكان قريب

وصح من أجل هذا قول ابنخلدون ان شهادة الشاهدين

بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع ، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين انهم « على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة فما الحامل لشيعتهم على الاعراض عنهم والدعاء لابن مجوسى أو لابن يهودى ؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف »

والمقريزى وابن خلدون قد أرخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل ـ وهما سنيان غير متشيعين ـ ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح ، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى ـ هو عريب بن سعد ـ وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحا فيه

وغاية ما ننتهى اليه فى هذه المسألة ـ مسألة النسب الفاطمى ـ ان المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه، وان مطاردة عبيد الله عند اتجاهه الى المغرب دليل على ان العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته ، وان مبايعة الشيعة لأبنائه ـ سواء شيعة الديلم فى بغداد أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن ـ ترجح صدق انتسابهم الى السيدة فاطمة الزهراء ان لم تؤكده كل التوكيد ، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لانها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لانكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه

الباطنية

كان المتنفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين ، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان ، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم فاستمالوا اليهم فى البلاد الاسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم ، ولكننا نحسب — بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه — ان المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين الا القليل الذين ينظرون الى الأمر كله بغير اكتراث أو يكترثون له ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون . أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فانما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم ان الباطنيين جميعا اسماعيليون ممن ينتمون الى اسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون ان الاسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية، ويلصقون بالاسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوىء والمنكرات ، ومن الفضائح والقبائح، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج الى جهد كبير فى التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين ان بعض المجاهرين

بالاباحة والاجتراء على مناسك الدين الاسلامى كالقرامطة فى البحرين كانوا يعلنون التشيع للاسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين ، فوقر فى الاذهان ان دعاة الاسماعيلية جميعا اباحيون ، وان الباطنية هى اخفاء المنكرات واعلان التشيع للتغرير والتضليل

وقد قيل ان رجلا من دعاة الباطنية يدعى «على بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة :

خذى الدف يا هـذه والعبى
وغنى هزاريك ثم اطـــربى
تولى نبى بنى هاشــــــم
وهذا نبى بنى يعـــــرب
أحل البنـــات مع الأمهـــا
ت، ومن فضله زاد حل الصبى
وقد حط عنا فروض الصلا
ة وحط الصـيام فلم يتعب
اذا الناس صلوا فلا تنهضى
وان صـوموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا
ولا زورة القبر فى يثـــرب
ولا تمنعى نفسـك المعرســ
ـين من الاقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهذا الغـــر
يب وصرت محـــرمة للأب

اليس الغـــراس لمن ربّــه
ورواه فى الزمن المجـــدب

وقيل على الجملة ان الباطنيين يظهرون الاسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد الشرك والضــلال بين أهله ، وانهم فى الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقــوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة ، وأنشأوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئا فشيئا من عقائدهم الى التعطيل والاباحة والكفر بالبعث والمعــاد وانكار الفرائض والعقائد والأديان

قالوا : وان الاسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والايمان على مريديهم ألا يفشوا لهم سرا ولا يظاهروا عليهم أحدا ، ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشــــوقه الى المزيد من الأسرار ثم تعريفـــه بنظام الدعوة ومن يتولاها ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى الى تأليه الامام على مذهب الحلول، وانه هو روح الله قد حلت فى جسد انسان ، ولعمـــرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من « الواصلين » الى هــذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعلمون سرا باباحة الشهوات ورفض الأديان ؟ !

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والاشاعات انهم جعلوها

كلها مسألة أخبار وروايات وراحوا يعنتون أنفسهم فيجمع هذه الأخبار والروايات فاذا هي تتناقض ولا تستقر على قرار

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الانسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وما يعقل وما لا يعقل ، وما يستحق أن يعارض علىالاوراق والنصوص وما يجب أن يرفضبداهة ، فلا يطول البحثفيه بعد ذلك الا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة علىحقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات

فمن الطريف حقا أن يقيد المريدون بالايمان والاقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فاذا هو سر يحلهم من جميع تلك الايمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم الى يقين جديد !

وأطرف منه أن يقال عن رجل انه معطل منكر للمعاد منكر للأديان ، منكر للوعود الالهية ثم يقال عنه ان كراهة دين من الأديان تبعثه الى الجهاد سرا وعلانية والاستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملا فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

انما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه ، فأما المنكر

المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء

كان تصديق هذا مفهوما فى القـرون الوسطى ، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون ان الكافر يكفر فى سبيل الشيطان وانه يرى الشيطان بعينهويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلا من نعيم السماء ، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم انهم على صلة بالشيطان وانهم تعلموا على يديه السـحر الاسود واطلعوا منهعلى أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الانسان ملحدا ينكر كل شىء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شىء من الأشياء كائنا ما كان ، الا أن يكون ذلك الشىء سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته ، ولا يعقل حينئذ انه يتدرج بالاتباع المريدين من الجهل بحقيقته الى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها عـلى الناس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة الى الاسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنسـاء ، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين ان علاقة النسـب بين القرامطة والاسماعيليين جد يحتمل البحث ويؤدى البحث

فيه الى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء

وأغرب الغرائب ان أحدا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل : لماذا لم يظهر فى المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أناس من دعاة الاباحية والعصيان ، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام ؟

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ ان الانتماء الى الاسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها ، فهم فى حاجة الى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع ، وانتماؤهم الى الفاطميين أو الاسماعيليين هو السند الذى يركنون اليه فى محاربة الدولة العباسية وانكار حقها فى الطاعة والولاء، ولو كان نشر الدعوة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الاباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين

ولقد حدث فعلا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا الى الدعاء على المنابر باسم الخليفة العباسى حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، وسول لهم الطمع انهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة ان الاباحةهى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل اليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الاسرار ، ثم يقال من جهة أخرى ان هذه الاباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعراء ويتغنى به القيان

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية الاسماعيلية والباطنية ، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح ، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد : يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير ، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف

□

اننا عرفنا ألوانا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة ، وبعضها دينى يتخذ له أغراضا سياسية كالجماعات الاورفية والجماعات الفيثاغورية ، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هذه النظم المزعومة ، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط

ولكننا اذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للاحالة على القدم أو للخبط فى الظنون ، اذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل الى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها ، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى ابانها أو بعد انقضاء زمانها ،

ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدىء الى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها ، ولا أن أوراقا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد أوانها ، بل زعم الرواة انالذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفسه دعواه قبل دعوى اسماعيل ابنـه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح ، ومن هو عبد اللهبن ميمون القداح ؟ هو واضع النظـــام كله ومرتب الدرجات كلها ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم اسماعيل بن جعفر الصادق جد الاماميين أجمعين..!

فعبد الله هذا هو الذى قال فيما زعم الرواة :

هات اسقنى الخمرة يا سنبر
فليس عنـــدى اننى أنشر
أما ترى الشيعة فى فتنـــة
يغرها عن دينها جعفـــــر
قد كنت مغـــرورا به برهة
ثم بدا لى خبـــــر يســتر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها :

مشيت الى جعفر حقبـــــة
فألفيتـــــه خـــادعا يخلب
يجر العــلاء الى نفســـــه
وكل الى حبله يجـــــذب

فلو كان أدركم صـــــادقا
لما ظل مقتولكم يســـــحب
ولا غض منكم عتيـــق ولا
سما « عمر » فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلى سرا مجهولا قبل اللياذ بالامام جعفر والمبايعة له ولبنيه ، ولا حدث بعد العلم بهذه الأسرار وغيرها انه عدل عن الدعوة الاسماعيلية فيما تواترت به أخباره فى المشرق والمغرب ، فما زالت دعوة القداح الى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لاسماعيل وأبناء اسماعيل

□

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك ان لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه • وخير من هذه « الورقيات والنصيات » أن نطمئن الى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها الى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الاسلامى من القرن الثالث الى القرن الخامس للهجرة ، ونخصص منها بالنظر ما يرجع الى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة ، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها ، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه • فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء على وفاطمة ، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم ان الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطأون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان ، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لانكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعياء الواثبين عليها ، وتتابع المنتحلون للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات ، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين فى الكوفة • فانه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الاخشيد فاعتقله ولم يطلقه الا وقد عدل عن دعواه ، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران انهم قالوا له فى بنى عدى : « ها هنا ناقة صعبة فان قدرت على ركوبها أقررنا انك مرسل • فمضى الى تلك الناقة وهى رائحة فى الابل وتحيل حتى وثب على ظهرها ،

فنفرت ساعة وتنكرت برهة ، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم »

قال أبو العلاء بعد ذلك : « وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللاذقية وان بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحا مفرطا ، وان أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته وقال للمجروح لا تحلها فى يومك ، وعد له أياما وليالى ... فبرىء الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد ويقولون انه كمحيى الأموات ... وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية ، أو فى غيرها من السواحل ، انه أراد الانتقال من موضع الى موضع فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل ، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح ، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد : انك ستجد ذلك الكلب قد مات ، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر ... »

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطيب ، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية بذريعة الأدب والكتابة ، وأطمعه فيها ان كافورا الذى طلب منه الولاية كان خصيا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيما زعم : « دون الله يعبد فى مصر ..! »

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله الى أبى العلاء المعرى : « ... اننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى الى مصر وشاهدت الناس بين

رجلين : اما منتحلا لشريعــة صبأ اليها ولهج بها الى الحد الذى ان قيل له من أخبار شرعه ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق ، ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه ويلعنه ، فالعقل عند من هـــذه سبيله في مهواة ومضيعة ... أو منتحلا للعقل يقول انه حجةالله تعالى على عباده ، مبطلا لجميع ما الناس فيه ، مســتخفا بأوضاع الشرائع ، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ، ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين ، لا على انهـــا ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى . فلمـــا رمت بى المرامى الى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ ، وفقه الله ، بفضـــل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل ، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا ويتبعه من تقاسيم الظنون سببا ، وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا ، فحفظته بالغيب ، وقلت ان المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب ، وقام فى نفسى ان عنده من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا ، وأمرا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضا ويلعن بعضهم بعضا ، ولما سمعت البيت :

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى
لتسمع أنباء الأمور الصـــحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده ، وتأكدت عهوده ، وقلت : ان لسانا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقا ، ويفتق

من هذا العظيم رتقا ، للسان صامت عنـــده كل ناطق ، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق ، فقصدته قصـــد موسى عليه السلام للطور اقتبس منه نارا ، وأحاول أن أرفع بالفخر منارا ، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفـــون واختلف في حقيقته المختلفون ... »

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو « أبو نصر هبة الله ابن موسى بن أبى عمران» صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية ، كتب رسائله الى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة ، مستعظما على المتقولين أن يتهمـــوا بانكارهما حكيما كأبى العلاء ، وقد استعار من اسمه « موسى بن أبى عمران » تفسيرا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمـة وقوتها الخفيـــة ننقـــل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه « ان حســاده أغروا به وزير حلب فجهز لاحضاره خمسين فارسا ليقتله ، فأنزلهم أبو العـلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنوعمه وتألموا لذلك فقـــــال : ان لى ربا يمنعنى ، ثم قال كلاما منه ما لا يفهم ، وقال : الضيوف الضيوف . الوزير وزير . فوقع المجلس على الخمسين فارسا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات ، فمن الناس من زعم انه قتلهم بدعائه وتهجده ، ومنهم من زعم انه قتلهم بسحره ورصده »

وروى صاحب الكوكب الثاقب هـذه القصـــــة بزيادة

تفصيل فذكر عن الغزالى انه قال : « حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال : دخلت معـــرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب اليه بأن المعـــرى زنديق لا يرى افساد الصور ويزعم ان الرسالة تحصل بصــفاء العقل ، فأمر محمود بحمله اليه من المعرة وبعث خمسين فارسا ليحملوه ، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة ، فدخل عليه عمه مسلم بن ســـليمان وقال له : يا ابن أخى ! قد نزلت بنا هذه الحادثة ، والملك محمود يطلبك ، فان منعناك عجزنا وان أسلمناك كان عارا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار ، فقال : هون عليك يا عم ولا بأس عليك، فلى سلطان يذب عنى . ثم قام فاغتسل وصلى الى نصــف الليل ، ثم قال لغلامه : انظر الى المريخ أين هو ؟ فقال : فى منزلة كذا وكذا ، فقال : زنه واضرب تحته وتدا ، وشد فى رجلى خيطا واربطه الى الوتد ، ففعـــــل غلامه ذلك ، فسمعناه وهو يقول : يا قديم الازل ! يا علة العـــلل ! يا صانع المخلوقات ! وموجد الموجودات ! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام ، الضيوف الضـــيوف .. الوزير الوزير .. ثم ذكر كلمات لا تفهم ، واذا بهدة عظيمة فسئل عنها فقيل : وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين ، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير . قال يوسف بن على : فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أرض الهركار . فقال : زعموا اننى زنديق ، ثم قال : اكتب . وأملى عـــلى أبياتا من قصيدة أولها :

استغفر الله فى أمنى وأوجالى
من غفلتى وتوالى سوء أعمالى (١)

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الاسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة ، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية وبغية كل طالب : طالب الدين وطالب الدنيا ، طالب المعرفة وطالب السحر والعيافة ، أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الاسود ، وخليق أن يقف النظر طويلا عند قول داعى الدعاة انه يطلب سرا من أبى العلاء ، وانه قام فى نفسه ان عند أبى العلاء « من حقائق دين الله سرا قد أسبل عليه من التقية سترا » . فانه قد يكون فى هذا القول مادحا أو مازحا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من « الباطنية » التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين ...

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية ، وهو الرجل الذى ينتهى اليه كل سر ، ويصل اليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه - فيما زعم الزاعمون - ان الدين لغو وان القيامة وهم وان المحرمات مستباحة للعارفين ، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى اليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته الى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب ؟ لقد كان الرضى عن مذاهب الزندقة جميعا أولى به من التعرض لذويها

---

(١) كتاب أبو العلاء المعرى للمرحوم « أحمد تيمور باشا »

ومحاسبتهم عليها ، فانهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول اليه ، بعد طول العناء

الا أن الخلاصة الثابتة في ذلك العصر ان « الباطنية » الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين ، فهناك « باطنية » يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم ، وادعاء الأسرار في تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه ، وأقرب ما يكون هذا الادعاء الى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلمه منه غيره ، وفاقا لشرطه وتدبيره

وقد صار المجتمع الاسلامى الى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات ، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفةونشأة البحوث العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارىء في غير بحث ولا مبالاة

وقد كان أنصار السلطان القائممحافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب الى التجديد والتغيير ، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم ، فكان من

الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون ، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند « الواصلين » المتمكنين من بواطن الأسرار ، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد ، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقواما يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة ، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين، فان الفلاسفة الذين كانوايتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وان الصلة بينها وبين الانسان تتوقف على الرياضة والصفاء ، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والاشارات

واذا كانت « الباطنية الواقعية » قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية ، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكا ضريرا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم ، فمن الخلط أن يقال ان الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية ، وان هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء ، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو اسماعيلية، الى جانب هذه الباطنية الواقعية

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الاسماعيلية الى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيرا ولفقها تلفيقا لهدم الاسلام خاصـــــة وهدم الديانات عامة ، وتلقـــين « الواصـــلين » دروس الكفر والتعطيـــل وانكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات ، كراهة للعـرب ودولتهم ، وانتقاما منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان

فالتهمة ضعيفة لانها جاءت من مغرضين غرضهم معروف، وهي ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة • فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود ، ومرة يرجع أصلها الى ديصان الذى ظهر قبل الاسلام ، ومرة أخرى يرجع الى ابن القداح الذى يتبين من شعره انه مسلم وانه شك فى الامام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه ، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك انها لا تجرى مجرى المألوف من طبائع النفوس ، فان الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب اجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين اذا كفر به فى كل عصر طائفة من « الواصلين » معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء ، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة من داع وبغير سعى أو سعاية من ساع ، ولم يزل الشك يتسرب الى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء وجهروا بمذاهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الاسلام الصحيح ، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الامام عليه السلام الى عهدنا الذى نحن فيه ، ولم يكن هذا التشيع المقوت حجة على الامام على ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه

ففى حياة الامام على كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الارواح، وبعدمقتل

الامام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة « محمد بن الحنفية » وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم انه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات ،ومكان الامام وابنه محمد فى الاسلام أرفع من أن يتطاول اليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصديق ، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برىء منهم الامام على وعاقبهم بالحريق ، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الامام جعفر الصادق ـ أبى اسماعيل رأس الاسماعيليين ـ من داعية يفترى على الأئمة العلويين، وهم أحياء ، كما فعل أبو الخطاب الاسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار ، وزعم فى مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبياء الله ، ثم زعم انهم أرباب وان الامام جعفرا اله يعبد ، فلعنه جعفر الصادق وبرىء منه ونفاه . قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق « فادعى بعد ذلك فى نفسه انه الاله ، وقال أتباعه ان جعفرا الاله ... غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على ، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم »

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبد الله بن سبأ

للامام على وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج ، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب الى داعية القرامطة يقول له : « العجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده ، وحملته الى أرضك ورجوت أن نشكرك ، فلعنك الله ثم لعنك ، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده ٠! »

وعلى خلاف ما قيل عن اباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى ، ثبت من نصائح أئمة فيهم انهم كانوا يتصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه ، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات : « الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا الى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ... »

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا ــ وهو أعلمهم بالتنجيم ــ يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات : « من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك

علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ »

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى احدى قصائده :

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمهـا
وفى انها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منـــــا بها ومكذب
ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنــــا تأويل ذلك كله
بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
وكان بها دون البرية ذا خبـر
فأخبــرتنا ان المنجـم كاهن
بما قال، والكهان من شيعة الكفر
وان جميع الكافرين مصـيرهم
الى النار فى يوم القيامة والحشر
فجمعتنا بعد اختـــلاف ومرية
وألفتنا بعد التنـــافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا الى أن الكواكب زينـــة
وفيها رجوم للشياطين اذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجهـــا
تسير بتـــدبير الاله على قدر

وان جميع الغيـــب لله وحده
تبارك من رب ومن صـمد وتر
وما علمت منه الأئمـــة انما
رووه عن المختار جدهم الطهـر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله ـ وهو الحاكم بأمر الله ـ فلم يثبت من تصرفه انه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الاباحة وادعاء الربوبية ، وانه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الاسلام ليفسـدوه وينقضوه ، بل ظهر انه يحرم المباح ويطارد اليهـود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور ، وانه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه ، وأمر ألا يزيد الناس فى السـلام حين يدخلون اليه على قولهم : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته »

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة انه كان فى تخليطـه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال انه تولى العرش وهو يعلم انه يهودى أو مجوسى يسـتدرج المسلمين الى الكفر والاباحة وانه يهدم دولته ودولة الاسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضهوبدواته، فان التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه

وقد وضع كتاب عن « قرهقوش » صوره للنـاس فى صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيـلات والغرائب وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقـات

الرواة ، فحسبوها كلها جدا لا مرية فيه ، وتنـــــاقلوها وأضافوا اليها ، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطىء الى زمن قريب ، وقد كان « قرهقوش » على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا فى الحزم واصالة الرأى وحسن التدبير

وعند ابن‌خلدون ان الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على‌الحاكم من الدعاوى الدينية ، وانه كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة ، وأما ما يروى عنه من الكفر ... فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل ، ولو صـــدر من الحاكم بعض ذلك لقتل لوقته ، وأما مذهبه فى الرافضة فمعروف ، ولقد كان مضطربا فيه ، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها»

على ان الأقاويل عن الحاكم ـ صحت أو لم تصح ـ انما تروى عنه ويعلم رواتها انهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية

□

ونحب هنا أن نوضح ما نســــتبعد نسبته الى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا اليه من‌الشواهد النفسية والتاريخية

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميـين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصـــوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علمـاء الدين من السنيين والشيعيين

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية‌الفاطمية

كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنـــافع الخاصة مع خدمة المنافع العامة

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيدا ولا موجب لاستبعاده نظرا الى احكام العقل أو شواهد التاريخ

ولكن الذى نستبعده ونرى انه مناقض للواقع والمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المعطلين على انشاء دولة لهدم الدين الاسلامى والدولة الاسلامية معه ، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن الى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب الى العقل ذلك الزعم البعيد

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية أو شؤون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه

ان الايمان بالامامة واطلاع الامام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعـــــوة العلوية فى نشأتها التاريخية

فان المؤمن بحق على وأبنائه فى الامامة يسائل نفسه : لم لا ينصره الله على أدعياء الامامة والخلافة ؟

انه يؤمن بالله وقدرته وقدره، فلا جواب لذلك السؤال عنده

الا انها حكمة يعلمها الله ، وان الامامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان ، وان الامام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب ، وكلما تباعدت المسافة بين امامة الواقع وامامة الحق تباعدت معها المسافة بين امامة الظاهر وامامة الباطن ، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه امامة الباطن مستورة حتما فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الامام المستور ومن دعاته الذين يخلصون اليه ويعلمون مكانه ويفسرون أقواله واشاراته ، ولا بد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم

واذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الامام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء ؟

انه لن يعتمد على شيء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شؤون امامته ، ويؤمن بهلاك روحه ان خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة ، ونقض العهود وحنث باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به الى رصف أوراق أو رص أسانيد ، لأنه لن يكون الا هكذا حيثما كان ، وقد كان

ولا ننس أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريديهم: يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات « الموقف » ان الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الامامية على الجملة تتلاقى هنا ــ بحكم الموقف الواحد ــ فى كثير من الأمور

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد، وان كانت متعددة المطالب والموضوعات

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هـذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة

فكان « الموقف » الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لا يرتاح اليها أنصـار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من مجرد المصادفة ان فلاسفة المشرق كانوا مُن الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم ، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة ، وكان اخوان الصفاء كذلك من الشيعة ، ومن كان من الفلاسفة سنيا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الاسماعيليين وأئمة الفاطميين. اذ كان يرى ان الايمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى ان فلاسـفتهم أخذوا بمذهب الفيض الالهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون وهو ينتمى فى حقيقته الى الحكيم أفلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا ان أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الاسماعيلية

ونستخلصه من رسائل اخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب ، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان ، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى ، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث

وعلى نقيض ما قيل عن الاباحة فى مذهب الاسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الالهى بالمبالغة فى التطهر والاعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء ، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الالهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود

وقد نبه اخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم الى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة ، وقالوا غير مرة ان الاستسلام لشهوات البدن يقطع الانسان عن آخرته ومعاده ، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات: «اعلم ان الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الانسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها كما قال قائلهم فى هذا المعنى :

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى
وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضا فى هذا المعنى شعرا :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة
وكل وان طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيا عن أمر الآخرة :

ما جاءنا أحـــد يخبـــرانه
في جنـــة من مات أو في نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقـــوبة لهم عندما تركوا وصـــية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتبـــاع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم اليه ويرغبون فيه من نعيم الآخرة ويأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشـــهواتها وعاجل حلاوتها »

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى انه مذهب نسك وعفـــة وعزوف عن الماديات وترفع الى عالم الروح ، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه ، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى :

« ... انه يتجاوز ـ أرسطو ـ أشواطا بعيدة فى التنزيه والتجريد ، فيرى ان الله ـ أو الأحد ـ من وراء الوجـــود ومن وراء الصفات ، لا يعرف ولا يوصف ، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان ، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه ، وهيهات أن نفهمه باثبات صفة من الصفات ، لأننا نســـتطيع أن نقول انه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول انه هكذا يكون

« وقد يتصل به الانسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول ، ولكنها حالة لا تقبـــل

التأمل والتفكير ، فاذا انقضت فقد يثوب الانسان بعدها الى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد الى مقام العقل الذى هو دونه ، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول • ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو ان الله أو « الأحد » لا يشغل بغير ذاته ، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء • أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل ، وان العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وان كان دونه فى مرتبة الوجدانية ، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات

« ومن البديه ان صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئا منه ينتقل من المعطى الى الآخذ فينقص بانتقاله ، أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه ، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال

« والنفس ــ وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين ــ تتجه الى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه ، وتتجه الى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه ، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة • فهذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات ، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان

« فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام ، وكلها غشاء باطل يزداد بعدا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى

اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة ، فان العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس ، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة حتى تنحدر الى الهيولى التى لا نفس معها ، وهى معدن الشر فىالعالم، لأنها سلب محض يحتاج أبدا الى الخلق ، وهو الايجاد أو الايجاب

« وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية ، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات • فهى باتجاهها الى النفس الكلية الهية صافية ، وباتجاهها الى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية ، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو ، بل هى جوهر منفصل عنهسابق لهكالمثل الأفلاطونية،فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان ، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول ، مستجيبة لطبيعة الاصدار فى ذلك العقل ، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى الى منزلة المحسوسات فالمعقولات

« والشرّ فى العالم هو الهيولى لانها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها ، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبينالعقل والنفس فى دور من أدوارها ، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها ، فان أفلحت عادت الى النفس الكلية خالصة مخلصة ، وان لم تفلح عادت الى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية ••

« ولا حرية للانسان كما رأيت ، لأن وجوده ضرورة

يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى ، ولكنه يقـاوم تلك الضرورة بجهـاد الشهوات ، فيترقى من مرتبة الحس الى مرتبة التأمل الى مرتبة الكشف ، وينتقل من شتات الحس الى استجماع العقل الى وحدة الأحد ورضوان الكمـال ، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ، ولا محـل بينهما لشيء من الاختيـار ، وان قال به أفلوطين فى بعض الأحيان ... »

هذه خلاصة وجيزة جدا لأصول مذهب الفيض كمـا شرحه تلاميذ أفلوطين ، نعتمد فيها على المراجع الأوربيـة الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية ، وقد نقل هـذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات ومفصلا فى أوقات أخرى الىاللغة العربية، ووقع فى نقله خطأ اسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولا منه الى أفلاطون ونسبوا مبادىء منه الى أرسطو، ولكن المتصوفة الاسلاميين وفلاسفةالاسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الاسلامى وهو تنزيه الأحد وعقيدة التجلى على الخلصاء من العبـاد والمتأملين ، ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها الى الأجساد التى تشـقى فيها ، أو مكافأتها بردها الى الأجساد التى تترقى فيها الى مرتبة فوق مرتبتها

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معا ما يوافقهـم فى أقوال أفلوطين ، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطـريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الامامة الدينية ، وانما قالوا بالكشـف والقدرة على الخوارق أخذا بالأقيسة الفكرية ، واستدل ابن

سينا على امكان الكشف بأن النفس الصـــالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة ، وان نفس الانسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف فى مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التىتتصرف فى جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم ، ومنهم من كان يدعى انه ابن الامام على بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجســـدية ، زاعما ان البنوة تحصل بالانتماء الى الروح كما تحصل بالانتماء الى الجسد ، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة الى هذه الدعوىلانهم يصححون نسبهم جميعا الى الامام على بغير وسيلة هـــذا التناسخ المزعوم

ولا شك ان العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفا من مذهب أفلوطين كما وصل الى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات : ان الله « لما وهب العلمللعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر ، فهو عالم قادر بمعنى انه وهب العلم والقدرة ، لا بمعنى انه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة ...وانه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ،ثمبتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام ... ولما اشتاقت النفس الى كمال العقل احتاجت الى حركة من النفس الى الكمـــال واحتاجت الحركة الى آلة الحركة الخ الخ » .

فهذا المذهب فى الصفات الالهية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته ، وفحواه بلا اغراب ولا ابهام اننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم الا ما يعطينا اياه ، واننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة الا ما نقدر عليه بأمر الله ، وهكذا فى سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه انه انكار لعلم الله وقدرته ، اذ كان أصحاب الفيض الالهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الالهى مرتفعا تعجز عن ادراكه العقول

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط فى فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون ، فان هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الانكار ، فان الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزيه والتطهير ، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان • فان القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الالهية على الموجودات جميعا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيها لله « الأحد » عن جميع المحسوسات والمتعددات

ويسمع السامع ان حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل اليه ان اللاحق أفضل من السابق أو ان قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل وجر الى الخبط فى الظنون لغير علة لولا الحماقة وخفة العقل وحب الحذلقة والادعاء

وقد كان ابن هانيء الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون ، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الاسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب اشبيلية فأقصاه خوفا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ، ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول ان المعز أقدر من الله والا لما قال بعد ذلك :

وكانما انت النبى محمد
وكانما أنصارك الأنصار

وانما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وان الله يوصف بالقدرة لأنه يعطيها ، وان مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لامضاء تلك المشيئة ،فخلط وخبط واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به،ولم تكن به ولا بممدوحة حاجة اليه

الا اننا اذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية ، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع مثله من امام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح ، وقد كتب محيى الدين

الى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها : « للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة ، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الاحكام ، فقوام الايمان واستقامة الشرع بكتم السرية ·· » الى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية ·· وفوق كل ذى علم عليم

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالاغراب لقال قائله ان النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها ،وان العلم لازم لأن النبوة لا تصل الى الناس أجمعين ، وان الأحكام لازمة ، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام · ولكن الاغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير ـ كل أولئك يقود الى الظنون حيث لا موجب للظنون

□

وجملة القول ان الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة الى قيام دولة تحارب الدول القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب ، فقد كان كل مذهب فى ذلك العصر « باطنيا » على نحو من الأنحاء ، وأوشك أن يتساوى فى هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة واخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرون منه حينا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه

فالامام الغزالى ـ وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة ـ كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة · وكان من كتبه ما يضن به على غير أهـــله ، والامام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى انها تمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر والمروق من الدين ، وشعارهم جميعا :

خل جنبيـــك لرام وامض عنه بســلام
مت بداء الصمت خير لك من داء الـــكلام

الا أن يكون مندوبا لعمل لا حيلة له فيه أو متجـــردا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه

ومن المحقق ان الباطنية الفاطمية أضـــيف اليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى ســـيأتى ذكره فى زمرتها ، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل ، وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها ، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيـــلة والهجوم على المخاطر ، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية الا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هـذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة ـ وهو أمير الجيوش الذى ينسب اليه حى مرجوش والجمالية ـ وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطـة

أبيه ، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الاسماعيلية ، فصادروا الاسماعيليين ونفوا أناسا من قادتهم وغلاتهم من الديار المصرية ، وضاق الخليفة الآمر بوزيرد ذرعا فتحدث الى ابن عمه فى قتله عند دخوله اليه بقصر الخلافة ، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه ، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله ،واغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته ، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه بهطمعا فى الوزارة ، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم منمصر ثم تسللوا اليهاخفية... وشجعهم على الانتقام منه اغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم واسناد الوظائف اليهم متى آلت اليه وزارة الدولة ، ولو كان نظام الفدائيين معروفا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الاسماعيلية أنيستبد بالامام المطاع ولا احتاج الامام المطاع الى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة ولا الى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والاغراء والاستعانة بذوى المطامع والترات

ولا شك أن الحسن بنالصباح لميعمد الى نظام الفدائيين الا بعد استيلائه — كما سيلى — على قلعة « آلموت » واضطراره الى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله، وهو فىقلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوشالزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها ، وأمعنت فى التخفى أو فى « الباطنية » الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة ، تسرع الى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها • ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها « مجوس أو يهود » بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين ، بل كان لزاما لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الاسماعيلية، فلو انهم قالوا لأولئك الرعايا ان الاسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم، اذ كان أكثر الرعايا يعلمون ان الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وان استحقوه بنسبتهم، وان أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين ، فان لم يكن خطر الاسماعيلية خطرا على الدين وعلى المسلمين جميعا فهو خطر لا يهم الناس فى كثير ولا قليل ، ما دام مقصورا على أصحاب العروش والدسوت

لهذا راجت خرافة النسب الى المجوس واليهود ، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية ، وكل ما ثبتت نسبته الى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف

المسلمين من سنيين وشيعيين ، بل يختلف عليها الشيعيون الاماميون أنفسهم بين القائلين بامامة موسى والقائلين بامامة اسماعيل من أبناء جعفر الصادق ، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الاسلام كله وتضليل المسلمين أجمعين

ومحصل القول فى المذهب الاسماعيلى من الوجهة الفلسفية انه هو مذهب الفيض الالهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية ، يضاف اليه القول بعصمة الامام وانه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والاحاطة ببواطن التنزيل ، وينبغى أن نذكر هنا ان القول بالعصمة الواجبة لكل امام كان مذهبا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة ، فان الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لامام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة ، ولعله لهذا كان قريبا من الشيعة محبا للمتشيعين

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الامام على وأبنائه الأكرمين، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين ، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم ، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقادا ولا يرى الخلافة لأحد غير الامام على وبنيه ، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال ، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن علىّ على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق الى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الاسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصـــباح فى زمرتها ، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح ان الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات الا أضافت اليها شيئا من عندها وطبعتها بطابعها ، وانه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم الى وجهته ، بل كان من الذين يديرون الدولاب الى وجهتهم حين يتعلقون به ، ولا يدفعهم الى التعلق به الا انهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفســـهم دولابا مستقلا يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصـــادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبـــر الكاذب على السواء ، وهى الجنون بالسيطرة والغلبـــة ، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبـــا للسيطرة ولا رغبة فيها ، لأنه كان مغلوبا لدفعة نفســـه أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقا لهـــا غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل انسان ، ولكن الفرق عظيم بين

من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها ، وبين من يطلبها لانه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والاذعان للمسيطرين

ذلك مضطر الى طلب السيطرة ، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها ، وقد يفضل الاستغناء عنها اذا جشمه الطلب فوق ما يطيق

وكان الرجل داهيا ولكنــــه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله

أو لعله كان داهيا عظيم الدهاء ، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه اليها كانا أعظم من دهائه · فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون

ومما لا ريب فيه ان الرجل لم يكن من الغفـــلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتـــولى نشرها والدعوة اليها ، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرا واحدا يدل على انه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ما وراءها من الحقائق ، ولا سيما اذا كان التصديق هو طريقه الى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء ، فمن مألوف النفوس ـ أو من مألوف هذه النفوس خاصة ـ أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز ايمانها بمطمعها ، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعـــه على اليقين وتجميل العيوب لانها أريح له وأعون له عـــلى هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيون

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثـــاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالا شتى يبدو فيها خادعا مخـــدوعا فى وقت واحد ، فهو حصيف لا شك فى حصافته ، ولكن كيـــف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس اليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف ، وفيما هو أسخف منه ، اذا كان مغلوبا على أمره مضطرا الى تسويغ دفعتـــه بعقيدة تجملها فى نظره وتلبســـــها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه

□

أما ان حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعـــة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى الى السلطان ، فانه ما اتصل بأحد قط الا خافه على مكانته وتوجس منـــه على الرغم من دهائه وفطنته ، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى ان تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة ، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ الموفق معهـــد السنة فى نيسابور ، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله

صاحب « جامع التواريخ » ... وفى روايته عن صباه يقول ان سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك انه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة اذا وصل أحدهما الى منصب من مناصب الرئاسة ، وان ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيره بين ولاية الرى وولاية أصفهان ، وكان ابن الصباح عالى الهمة فلم يقنع باحدى هاتين الولايتين ، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه الى مكانة أكبر من مكانة الولاة

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة ، ولكنها على كل حال يصح منها شىء واحد : وهو علم المؤرخين للرجل ـ من محبيه فضلا عن مبغضيه ـ انه كان بعيد المطامع منذ صباه.

وحدث ، وهو فى الديوان ، انه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بانجازه قبل أن ينجزه الوزير ، فاحتال هذا على احباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه الى منصبه فوق كتفيه

وقيل فى تعليل سفره الى مصر للقاء الخليفة الفاطمى انه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره الى جانب علمه بأسرار الدعوة ، فأراد المزيد من العلم بالشخوص الى دار الحكمة فى القاهرة ، لعله يستوفى هنالك علوم الاسماعيليين التى غابت عن دعاة العراق

ومن الواضح ان الشخوص الى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة ، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين

مقام محمود ، ولم يبق له الا أمل واحد لا منصرف عنه ، وهو باوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة كبير المطامع يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الامارة والملك لو تمهد اليهما السبيل ، ومن ثم زوج بنته للامير المستعلى بن الخليفة ، وأكره الخليفة أو زين له أن يختار المستعلى لولاية عهده ، أملا فى الملك ان استطاعه لنفسه ، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الاشارة اليه ، وذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله الى القاهرة ، فاختار نزارا لولاية العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة ، واستمد من أساس المذهب الاسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه ، فزعم انه مثل بين يدى الخليفة المستنصر فوكل اليه الخليفة أن يدعو اليه والى ولى عهده بين الأمم الاسلامية • قال : « فسألته ومن ولى العهد؟ فأشار الى نزار •• »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت الى اسماعيل ابن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته واسنادها لأخيه ، موسى ، فان الاسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام

لها أساسا كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الاسماعيلية من مبدئها ، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين ان الخليفة لم يدعه الى لقائه ، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة ، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والاقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر ، ولما يصدق بالنجاة ، وراح بعد الافلات من الخطر ينشىء له دعوة جديدة فى المذهب الاسماعيلى ، وهى الدعوة الى امامة نزار

□

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة ، ويبدو أن حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه ، حرجا بما لقيه وضيقا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج اليه ، فقال يوما لأحد أصدقائه فى أصفهان : لو أن معى صديقين أركن اليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم ... فظن به صديقه الجنون وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه ، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره الشك فى عقله فتركه ومضى لسبيله

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف انه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الاسماعيلية عبد الملك ابن عطاش ، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه ثم زين له السفر الى القاهرة ، وأطلعه قبل سفره اليها على أسماء

بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعا ، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز انه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها ، فما زال الحسن يتعقب ابن‌عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من‌اطمئنانه اليه ، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها

وواضح ان تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أيأسته من الوثبة الى السلطان من طريق الولاية ، ولكنها لم تيئسه‌من الوثبة الى السلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه ، فطمحت به همته الى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد اليه فيه يد ملك أو خليفة ، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم، فخرج اليها مع رهط من صحبه وأتباعه ، وقيل انه تلقى من مصر فى هذه الأثناء ولدا لنزار بايعه بالامامة وعمل باسمه ودعا اليه ، حتى انتهى به المطاف الى قلعة يقيم فيها زعيم من العلويين فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله ، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها ، وساعده على انتزاعها انه خيل الى أهل الاقليم ان مجموعة حروفها بحساب الجمل توافق تلك السنة الهجرية : سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها

كلمة الهاموت ، وأتم الحيلة فى أذهان القوم انه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم من (اله) بضم اللام بمعنى النسر فى الفارسية و (اموهت) (۱) بمعنى المعلوم أو المعلم ، ايماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة ، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الامام المعلم فى كل زمان !

□

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالاعاجيب التى تزجى الاحاديث بين الناس فيصدقونها لأنهم يحبون الاستماع الى العجب والتحدث بالعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط فى كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة

من هذه الأعاجيب ان الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب ابن عطاش فسخره فى نشر دعوته ، وانه توسل به لاقناع أتباعه برؤية الجنة عيانا لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم الى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون انه قد نقلهم الى جنة الفردوس وانه قادر على مرجعهم اليها حيث يشاء ، وانهم

---

(۱) ينطق اسم القلعة « الاموت » أو الموت بفتح اللام

اذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم الى السماء

قالوا : وان هذا الاقناع أو هذا « الايمان العيـــانى » يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانهمن الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالونهم غير وجلين ولا نادمين، وان كلمة «أساسين» assassin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع الى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة الى الحسن بن الصباح ، وقالوا ان الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير اليه الشيخ بالقاء نفســـه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد ، وان أحدهم كان يقيم بين جنـد الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم ، وانه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها ، وان أمهات هؤلاء الفدائيـــين كن يزغردن اذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن اذا عاد الأبناء اليهن ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الاعداء

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم ، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه الى عهد الرحالة البرتغالى « ماركوبولو » الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد ، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولا فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء

ونحن نستبعد جدا أن يكون للجنة المزعومة أصـل فى قلعة حسن بن الصباح ، فان التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصـــة ذلك النسيج الواهى المريب

ان الحسن بن الصباح كان معروفا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه ، وكن يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه ، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنا طويلا دون أن يطلع عليه المقربون ان لم يطلع عليه جيرةالقلعة أجمعين ، وليس منالمعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه في وقت واحد ، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس ، وليس من المعروف عن الحشيش انه يهيىء صاحبه لمواقف الاقدام على المخاطر والاصرار عليها شهورا أو سنوات

ومن المحقق ان شيخ الجبل لم يطلع أحدا على سره ، وان أحدا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه ، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه الى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى ؟

ان روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيينولمتنشأ بين المشارقة ، وقد كان الصليبيون فى حاجة الى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح، فخطر لهم وقالوا وكرروا انهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان ، اذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم الى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب ، وقد

كان ماركوبولو في روايته يقول ان الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبى عليـه السلام ، وكأنه يقول انهم لهذا يقبلون المـــوت وهم قوم هالكون ، فهم فى شجاعتهم مخدوعون

ان القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم • فلم يتخيلوا لذلك سببا غير الجنة الموعودة ، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان ، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضـــهم ان أناسا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة ، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الاسماعيليين ، أما جنة « الموت » المزعومة فهى من مختـــرعات الغرب لا نعلم انها وردت فى كلام مؤرخ اسلامى قديم ولا أن أحدا من مؤرخى الغرب أسندها الى مصدر من المصادر الاسلامية ، ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامى لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة ان وجه الغـرابة الذى دعاهم الى اختراعها غير غريب ، فان النخوة الدينية كانت أقرب شىء الى أتباع الأئمة فى ذلك الزمن ، ولا تصلح رؤية الجنة عيانا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء فضلا عن الفتيان المجردين للفداء • فاذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانا فالعجب لامهاتهـــم اللائى كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهـن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان !

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر بين المؤمنين بالمهدية ، وكانت فتن العصر أشبه شىء بفتن آخر الزمان أو باشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الارض عدلا كما ملئت جورا وينجو باتباعه ومصدقيه الى حظيرة الخلد والسلام ، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم ، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانيةعشرة وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والايمان ، وكان الايمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد ، وكانت لشيخ الجبل ارادة من حديد تتسلط على أجناده تسلط « المنوم المغناطيسى » على المدربين عنده على التنويم ، فلم يكن فى طاعة هؤلاء واقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة الى رؤية الجنة بالعين ، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين ، فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد الى دافع أو حافز ، بل لعله يحتاج الى الوازع والرقيب

◻

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا عن خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية كثيرون ، منهم من يحسن

التفسير ومنهم من يسيئه ، ومنهم من يسرع الى الاتهام ومنهم من يتريث فيه • فمن الذين احسنوا التفسير ايفانوف الروسى صاحب كتاب « مؤسس الاسماعيلية المزعوم » The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل «الأساتذة المربين » الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين ، وقد عم الدعاة بالخداع من عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة « الموت » من «المهدى حسن بن الصباح ورشيد الدين سنان » وسائر هؤلاء الدعاة

فأما ان حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الانصار ، فهل يصدق القول عليه انه هو يخدع ولا ينخدع وانه هو يسوق ولا يساق ؟

الراجح عندنا ان هذا « المهدى » لم يكن خلوا من الايمان بدعوته على وجه من الوجوه ، وان عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد ، ولا داعى للشك فى ايمانه بعمله وان كان هناك شك كبير فى ايمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه

وما بالنا نتخيله خلوا من الايمان منصرفا كل الانصراف الى التضليل والخداع ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون الانسان مدفوعا الى عمله غير قادر على تركه ؟ أليس من دواعى الايمان أن يكون اعتقاد الانسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين ؟ أليس من دواعى الايمان أن

يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجةلتلك الرسالة ؟

ان « التنويم الذاتى » معروف متواتر ، وانه لاأقــوى ما يكون حين تندفع اليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها ، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودواعيه

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالاقناع الموجب واضحا أو وسطا بين الوضوح والغموض

ونعني بالرسالة السلبية انه آمن ايمانا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه ، وانه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية الى السيادة والسلطان ، فماذا يصنع بهذه الدفعة ان لم يعمل بها عملا قويا متصل العزيمة والثبات ؟

اما أن يستكين الى سيادة غيره والموت أحب الى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع ، واما أن يمضى قدما ولا بد له من مسوغ وبرهان ، وليس أسرع الى السريرة من المسوغ والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر ان الناس كانوا بين رجلين ، رجل لو قيل له ان فيلا طار أو جملا باض لما قابله الا بالقبول والتصديق « أو منتحل للعقل يقول انه حجة الله تعالى على عباده ، مبطل لجميع ما النـــــاس فيه ، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة

عليها وعظم المنفعة بمكانها ، لكونها مقمعة للجاهلين ولجاما على رؤوس المجرمين المجازفين .. »

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم الى طلب السيادة والسلطان ، وليس فى طويتهم ما يثيرهم الى الحركة اذا آثروا السكون ، فاذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى فى نفسه الا انه أهل للقيادة والامامة ، وان الذين حوله أهل للقمع والنكال ، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه، هى أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين ، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر الى المريدين بالرموز والاشارات ، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذا بدفعة السيادة ، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه الى قدميه ، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح ؟ وهل من البعيد انه اطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين ؟ ان القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر ، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته الى عناية الله يتوجه به حيث أراد

ان المؤمنين الخالصين للايمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء ، وما من أحد آمن بعقيدة الا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد

وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون فى كل مائة ، ان لم نقل أكثر من ذلك ، يؤمنون بالعقيدة ايمان الوقاية أو ايمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة ، واذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد ، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه ، أو فى دعوته ، الى مقام السيادة والقيادة ، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه ، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم

لم يكن حسن بن الصباح خلوا من الايمان بعمله فيما نرى ، ولم يكن عسيرا عليه أن يركن الى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة ، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه ، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالالهام حينا بعد حين ، فما عاش الرجل بقية حياته غائبا عن صوابه ولا مالكا لكل وعيه ، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخادع المخدوع

□

استولى الحسن على قلعة « آلموث » فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية ، فظل مالكا لتلك القلعة باسطا نفوذه على ما حولها خمسا وثلاثين سنة ، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الاسلامية من مراكش الى تخوم الصين

وولى عهده ، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحيـــــة للانتساب الى الامام واستعان بتعـــــدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم « نزار »

ومات « المستنصر » الخليفة الفاطمى سنة ٤٨٧ للهجرة الاسماعيلى على انتحال المرجع الذى يروقه أن يدعيه ، فهو حجة ومهدى وامام كما يشاء

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث : الحيلة ،والغيلة، والفتنة الدخيلة. فمن الحيلة ان السلطان السلجوقى ملكشاه سير اليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعـــــة الموت بسنتين ، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظـــام الملك استخفافا بشأن القلعة وحاميتها ، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمـــل الخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر ، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون ، فانقضت عليهم حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلا ونهبا وتشريدا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ الى نصيحة وزيره فى هذه المرة، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة ، وأرسل الى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذى سيره الوزير الى حيث استدعاه ملكشاه ، لحاجته اليه فى اتقاء الفتنـــة واتقاء الغارة من المغول

وتساعدالرجل مصادفات الحوادث ٠٠ فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع انها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدا بعد واحد ، ويتنبه الرجل الى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة ، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم ، وقد يشـــيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير انه من الاسماعيليين « الصـ حيين » المستترين ، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب اليه ؛ يظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش الى السلطان سنجر بن ملكشاه ، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره ، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح ، وقيل فى أسباب المصالحة انه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده ، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس اليـه وهو لا يعلم ، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والاتاوات فى اقليمه ، ويروى انه وجد فى طريقه الى حصار «آلموت» خنجرا مغروسا فى فراشه مكتوبا عليه ان الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك ، وانه سمع عن أمراء الحصون انهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل ، فآثر المسالمة على القتال

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية ،

بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية ، وهمه قبل كل شيء أن يكون أتباعه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشـــاركة ولا هوادة ، فانقسمت الدعوة الاسماعيلية على نفسها وأصبح لهـا في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان : أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو الى نزار ويدعى المهدية لشـيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الاسماعيليين ، والثاني يدعو الى المستعلى وأبنائه، وبقيت منها اليوم طائفة الاسماعيليين المعروفين باسم البهرة ، يقولون ان المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة « الآمر » الفاطمى وانه يحضر موسم الحج فى كل عام ، فمن رأى الحجاج جميعا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل في السنوات الاخيرة من مقامه بقلعة آلموت ، انه لم يكد يفارقها بعد دخولها ، ولم تكن له أسرة فيهـــا غير امرأته وولديه ، وهذا الزعيم « الباطنى » الذى قيل عن مذهبه انه ذريعة الى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المبـاح من الأطايب ، فضلا عن الحرام ، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه انه قتله لمخالفته اياه فى شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل ولدا واحدا بل قتل ولديه الاثنـــين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الذرية ، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الانسان العجيب كله ، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص

هل هو مجنون مطبق الجنون ؟ ان المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه فى شباب ولا شيخوخة ،وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخلفها غرابة أعضل وأدهى ، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عاما بعد عام ، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والاقدام

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها اراقة الدماء ، دماء الأبناء كدماء الأعداء ؟

انه خلق العقيدة النزارية خلقا فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبيح فى سبيلها ما استباح

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الانسان العجيب

ونبدأ فنقول اننا ينبغى أن نستغرب من حسن ابن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره ، ولو كانوا معظم الناس

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم ، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان ؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار، فضلا عن الشهوات الكبار ، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات ؟

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئــك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة ؟

كلا ! ليس هذا بالبعيــــد على الاطلاق ، بل هو دأب الطامحين من أمثاله الى السيطرة ، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الاهمال ، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين الى مكانه كما جاء فى بعض الروايات ، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر انه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده ، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره لاقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل

فاذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة ، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها ، فأنفى الظنون للحيرة انه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه ، وانه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها ، وانه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه ، وانه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال ، وهـــذا كله جائز غير مستغرب • أما المستحيل فهو انه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل له ولا غواية من وراء عمـــله غير الخداع والتضليل ، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الغفلة من سريرته، وهو يتسلل بالاقناع الى سرائر المئات والألوف ، ومنهـم الأذكياء والالباء والحصفاء

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل فى نقائضها المعلومة هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الاسماعيلية على التخصيص ، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه الامام بدعاته ، لا تبعا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الامام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم ، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم ، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الاطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم ، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لاعلان آرائهم واقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الامام ، حين يكون تعظيم الامام وتقديسه لازمين لاقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب والأهوال فى غير اشفاق على حياته أو حذر من

عاقبة أمره ، ففي هذه الحالة يتصف الامام بالقداسة التي توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة ، وكثيرا ما يستغني الامام عن المغالاة بقداسته في الأزمنة العصيبة التي تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود وتوالى العلامات والاشراط التي تؤذن بظهور المهدى وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه ، فاذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالامام الى عقائد المبالغة والمغالاة في أمره، وحسبه انه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

واذا أردنا التوسع الذي يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الاسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الامامة هو محور كل خلاف بين جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة ، فكل ما عزز ضرورة الامام الحي فهو من عقائد الشيعة ، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبي الرأى الى محور الخلاف كله ، فأيهما كان أقرب الى ضرورة الامام الحي فهو من مذهب الشيعة ، بغير حاجة الى البحث الطويل والاستقصاء البعيد

وقد لخص الغزالي هذا الفارق في كتاب المنقذ من الضلال فقال : « الصواب انه لا بد من الاعتراف بالحاجة الى معلم وانه لا بد أن يكون المعلم معصوما ، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فاذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب ، فاذا قالوا : معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ان اختلفوا أو اشكل عليهم

مشكل ، فنقول : ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم اذ قال الله تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم • وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته • يبقى قولهم : كيف يحكمون فيما لم يسمعوه ؟ افبالنص ولم يسمعوه ، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى اليمن ، اذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عندمه ، بل كما يفعله دعاتهم اذا بعدوا عن الامام الى أقاصى الشرق ، اذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فان النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة الى بلدة الامام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع ، فمن أشكلت عليه القبلة ليس لهطريق الا أن يصلى باجتهاده ، اذ لو سافر الى بلدة الامام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة • فاذا أجيزت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن ـ ويقال ان المخطىء فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران ـ فكذلك فى جميع المجتهدات ••• »

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب الى تعليم الامام المعصوم فهو قولالشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للامامة على مذهبهم كالزيديين ، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الامامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين

خذ لذلك مثلا اعلان بدء الصيام ، فان رؤية الهلال فيه

كافية على مذهب السنيين ، ولكن هذا الرأى يغنى عن اعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الاماميون ، بل يقــــولون ان المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصــومون حين يصوم ، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقــال لهم : « صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته » • ولم يكلهم الى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الامام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالاماميـــة ، وانما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والاوقات والسائلين، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القــرآن ، واجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه ، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتهـا توقفا على فهمها ، فانها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم ، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمهـــــا بالابتعاد عنها ، وقد ترخص بعض الاماميين فى أمر العصمة الواجبة للامام ، فأباح بعضهم نقد الامام كما فعل حسن ابن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر ، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الاشارة اليه،ولكنهم يقولون ان الامام يصيب وهو مختار،ويجرى مع الخطأ وهو مكره ، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الامامة من بعده ، فان من اختاره طائعا فهو الصواب المطاع

لقد صحبنا منشىء « الاسماعيلية الجديدة » من عهد بروزه فى ميدان الدعوة الفاطمية ، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى • لأن حياته العامة لا تتوقف على اخباره فى أوائل نشأته • فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته ، فهو ينتسب الى اليمن ويذكر من نسبته انه الحسن بن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى ، ومنكرو دعواه يقولون انه قروى من خراسان ، ومنهم من يقول ان أباه كان يعمل فى الصياغة، صناعة الصابئة على شواطىء بحر العجم

والثابت انه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته ، وان دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب بن الآمر التى كانت تناقض الدعوة الى نزار أمام الحسن المختار ، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة ، ولعله من أقربائه المستورين ان صح انه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور ، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين ، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فاذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا اذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات ، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وايا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير

شيئا من ملامح « الشخصية » التى برز بها فى التاريخ ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعـــوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه ، وهذه بعدشخصية أثبت فى ملامحهـــا من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية ، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التىاقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول



بناة وهدامون .. ومهدومون

ينسب قيام الدولة الفاطمية الى جهـــود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرا وجهرا الى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها ، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يخيلوا لمن يقرأهم ان غير هذه الجهود لم يكن له فى اقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقـــوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة ، ولكننا لا ننسى ان بعض هذه الدعوة كان يسىء الى القضية ولا يحسن ، وان فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم ، وان الدعوة لو انصرفت كلها الى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منهـــا للاساءة والتنفير لما بلغت غايتها ان لم يكن جو العـــالم الاسلامى متهيئا لقبول نظام جديد والاعراض عن نظـــام قديم

والواقع ان جو العالم الاسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه ، وكان هذا التهيؤ من شقين: شق ينكر النظام القائم وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم ، فيربطـــون بين مشيئة الانسان ومشيئة الكون كله ، ويلوح لهـــم حين يريدون التغيير ان التغيير كائن ولو لم يريدوه ، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ ، ويسمع النــاس « ان الشمس ستشرق من مغربها » فيهمس بها بعضهم الى بعض ، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان ، وليس أكثر من مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون انها علامة الغيب على الغير والاحداث ، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركنون اليها ويترقبونها، ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المجـــددون ويمارسونه ، ويبغضه المحافظون ويتشـــــاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه .

آين الرواية بل أين النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبــة
ما كان منقلبــا أو غير منقلب
وخوفوا الأرض من دهياء داهية
اذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث الى الوجهتين المتقابلتين : وجهة الراضين عن نبوءات النجـوم

ووجهه المتبرمين بها ، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعــلامات النجوم

قال صاحب زهر المعانى : « وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته ، ثم ان الملوك والأضداد أيقنوا بذلك ، وان صاحب الزمان تقدم للهجرة الى المغرب والمهدى فى كنفه ... حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره ... وأن يكنوه بالشمس الطالعة »

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجـــوم ، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه ، وهم بغير هـــذه البشارة مصدقوه ، فاذا علمـــوا ان الكون كله يتأهب « لطلوع الشمس من المغرب » فقد بلغ التصــديق غاية اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم ـ كما جاء فى المقريزى ـ انه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين ان الامام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة ، ونظم الفهرى هـــذه النبوءة فقال :

ألا يا شـــيعة الحق ذوى الايمان والبـــر
ومن هـــم نصرة الله على التخويف والزجر
فعند الســـت والتســـــعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرأون فى ارصــاد النجوم علامات زوالها الى ما بعد نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع ، فقال أبو طاهر القرمطى :

أغركم منى رجوعى الى هجـــر
فعما قريب سوف يأتيكم الخبر

اذا طلع المريخ فى أرض بابل
وقارنه النجمان ، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة
بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك انني
أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم ان الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى انه من رصدة النجوم ، فاذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير ارصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها ، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار والبصائر بمسالك الكواكب ، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم الى الغيب من بصير وضرير

وفحوى ذلك كله ان السماء والارض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان الى شيء ، وان الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون ، وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وجاءت الدعوة الفاطمية الى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها ، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم ، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين ، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزا وسفها فليس لهم منها غير الأسماء

وكان بطش العباسيين بأبناء علي من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه ، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد ،ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لاعتقل المهدى وقتل قبل أن يصل الى المغرب حيث أقام الدولة . يقول جعفر الحاجب فى سيرته : « وصلنا الى الرملة فنزلنا بها عند عاملها ، وكان مأخوذا عليه فلم يدر من السرور برؤية مولانا المهدى ... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه »

ثم قال ان النجاب وصل من دمشق الى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلهما ويبكى فطمأنه المهدى قائلا : « طب نفسا وقر عينا ، فوالذى نفسى بيده لا وصلوا الى أبدا ، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس .. »

وتبين غير مرة ان النجابين الاسماعيليين كانوا أسرع الى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه ، واستخدم الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل الى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة ، فان صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وايمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام الى المغرب ، وان لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب ، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره الى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية ، لاتعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة ، فقد روى عن كافور الاخشيدى ان الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه ـ وقد سقط منه ـ فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول : « نعيت الى نفسى ، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها.. »

□

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر ، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من اقامة الدولة ولا تمكنوا من الاقناع وهو أهم أعمال الدعاة

ونتابع الأمر الى غاياته فنقول ان الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها ، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم الى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشى الزمن ، وهى بعد التأسيس عرضة لطوارىء الهدم والتوهين

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد : مؤسس هو رأس الاسرة وموطد هو خلف

له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام ، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة ، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله ، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود ، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الارض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة ، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش ، وعرف بالحزم واصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد ، واجتمع له حسن التصريف ، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون ، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم ، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسا قليل النظراء

قيل فى قوة بنيته « انه كان بقوة عشرة رجال »

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء على من السيدة الزهراء ومن غيرها ، فقد روى عن محمد بن الحنفية انه جلد الارض بمصارع الروم الذى جاء الى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده ، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس ، فقيل عن يحيى ابن عمر الملقب بالشهيد انه « كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من

حشمه فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده »

وليست قوة البنية شرطا فى أصحاب العروش ، ولكن مؤسس الدولة يحتاج اليها اذا وجبت عليه الرحلة أحيانا من مكان الى مكان فجأة وعلى غير استعداد ، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه ، فاذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيامسلطانه، وأسعفتهمعها مهابة يعنو لها المؤمن به ومنيحاربه ولا يضمر مودته ، فلما كان أسيرا فى المغرب الأقصى كان صاحب « سجلماسة » ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه ، وكان يعمل فى مغيبه ما لم يكن يجترىء على عمله وهو ناظر اليه

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة • فلما خرج من الشام الى مصر هربا من خلفاء بغداد سيروا الادلاء الى كل بلد فى الطريق ينادون علىالناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه ، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء • واتفق انه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعـرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد « وضرب بيده على كم

الامام وقال له : قد حصلت لى عشرة آلاف دينار »

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الارض من الفزع ، ولكنه التفت الى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك انت الرجل المطلوب • فضحك المهدى وعاد معالرجل الى المسجد وهو يقول له : « عليك عهد الله وغليظ ميثاقه اننى اذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لىعليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار !•• » ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه الى حلقة قد اجتمع الناس فيها،وأدخله من جانبها وراغ منه••وأجمعالنية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير الى المغرب

وفى مسيره الى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه انه يحدث نفسه بلحاقه اذا تثبت من حقيقته ، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه ـ وكانت تربيتهلابنه كما نقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية ـ فوقعفى نفس الوالى ان رجلا يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به انه خائف على حياته وانه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه : « قبحكم الله • أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه • فلو كان يطلب ما يقال ، أو كان مريبا ، لكان يطوى المراحل ويخفى نفســـــه ، ولا كان رجع فى طلب كلب ••• »

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول عريب ابن سعد فى تاريخه ، وانه خشى من أصحابه أن يرتابوا

فيه ويرفعوا أمره الى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه ، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى الى بغداد

□

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة انه بادر على الأثر الى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعا فى يديه أيام استتاره ، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم ، وتعود هؤلاء الاعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم ، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة ، فانه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه • فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم — داعى اليمن ابن حوشب — فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم ، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى الى المغرب واستقدمه اليها بعد التمهيد له وجمع القبائل على عهده ، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس انهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وانهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه ، ونمى اليه انهما يأتمران به ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله ، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون ، فجعل يفرقهم

فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم ، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الاسلامية ليبشروا به ويتخذلوا الأنصار حول أعدائه ، فانطلق رسله الى بلاد الأمويين بالاندلس وبلاد الادارسة بالمغرب ، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان ، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل اقليم من تلك الأقاليم ، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها وان الأوان قد آن للجهــــر بها ، ورأى هو بثاقب نظره ان ثورة الأطراف قبل فتح مصر ، أو قبـــل المسير اليها ، تغرير بالثوار ، وان الثورة بعد فتــح مصر تتمة منتظرة قد تأتى عفوا وقد تنشب دفعـــة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية ، فلا يعيى الثـوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم ، وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى انه كان مقســور اليد فى حملاته على مصر . كان يوصى بالاناة والتريث حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الانصار ... ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفــة فى بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنــم الثائرون الفرصة قبل تمام الاهبة ، وتتــوارد الكتب الى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر الى هذه الاحداث من بعيد ، ولا يبلغ من ثقته بجـــدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة

للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخـــل فى أول عهده ، فينفذ الى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيـار ، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمله تبعةالاخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل الىالاسكندرية

أما الخطة التى يبدو انه كان يؤثرها ويختارها فهىارجاء الحملة على مصر الى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى علىفتنه ومشاغباته ، ويبتنى فيه المدينة التى أزمع أن يتخـــذها حصنا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين ، وقد شغلتـه فتن المغرب زمنا وأحرجته ايما احراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه فقمع الفتنة قمعا عنيفا لا رحمة فيه ، ولم يسكن الى مقره بالمغرب الا بعد الفراغ من بناء المهديةحوالى سنة خمس بعد الثلثمائة ، فقال يومئذ : « لقد أمنت الآن على الفاطميات »

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهـدية ، فانتقى لها موقعا يحيط به البحر من جهات ثلاث ، وأقام عليها سورا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منهما ألف قنطار وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنـــوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحامية عدة شهور ، وانتحى جانبا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة احدى قبائل البربر التى توالبـه ، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفا عن المهـدية وعزلا بين السكان ومرافقهم ، وأفضى الى خاصته بأنه انما فعل ذلك ليأمن غائلتهم • قال : « ان أموالهم عندى وأهاليهم هناك • فان أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عنـدى فلا

يمكنهم ذلك ، وان أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا »

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الاسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم الى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله ، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة ، وقيل انه مات قبل أن يحكم تدبيرها ، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة ، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته

□

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين ، فكانت مدة حكمه أربعا وعشرين سنة ، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والادارسة ومن يؤازرهم من الأمويين بالاندلس والعباسيين ببغداد ، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكما أو غير حاكم انه فرغ لمناعم نفسه

أو غفل يوما عن سـياسة ملكه ، وكانت له زوجة واحدة وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء الى أعداء الدين ، بل أعداء الأديان وانه تواطأ سرا مع رسل الفساد والغـواية لاستباحة المحرمات والاغراء بالفجـور ، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادى الدهر من أول القـرن الرابع الى نهاية القرن السادس ، أو يغالبها بآثاره الباقية الى اليوم



المعز لدين الله

واحتاجت الدولة الى التوطيد بعد التأسيس فقـــام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعـــز لدين الله ، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده ونقل مقر الملك اليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير ، وقيل انها كانت نبوءة ممن يحســبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالاربعينات

تولى الملك بعد المهدى ابنه « القائم بأمر الله » ثم المنصور بأمر الله ، وكلاهمـــا جدير بأمانة ميراثه وان لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعـده . فعزز القائم الاسطول واحتل الشواطىء الايطاليـــة حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة ، ومات قبـــل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه ولولا اعتصامه بالمهـــدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام ، وارتقى ابنه المنصور الى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كنداد وشتت جموعه ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الافرنج الذين خيف منهم على شواطئه فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم ، ومات مجهدا

فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

□

قلنا فى كتاب « عبقرية خالد » ان ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد · لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح الى غصن الزيتون مع السيف

وقد كان هذا شأن المعز فى المغرب بعد جده · فانه كان يحسن المجاملة الى جانب البأس والصرامة ، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة ، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملا ولما يفرغ من مراجعة الطروس والاسفار ، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعا ، فكان يحسن البربرية والرومية والايطالية والنوبية ، ويتوسع فى علوم العربية ، وكان له شعر ونثر يميل فيهما الى المحسنات لانتشارها على الألسنة والاقلام فى تلك الأيام

ويروى عن أنفته من الجهل انه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد انها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى اتقن علم تلك اللهجة فاذا بالكلمة من أرذل شتائمها ، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين فهمه أول

الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة ، فصعد الى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه .وأسرع اليه المخالفون يتقربون اليه لما أنسوه من مودته وكرمه

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول انه كان حريصا على الانتفاع بالتجارب والعبر ،وانه كان يحسن اصطناع الرجال ، وانه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه

فلم ينس هزيمة الاسطول فى الحملة على مصر ، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه ، ثم جدد حفر الآبار فى الطريق الى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يستخلص الخدام والاعوان ولا يغار من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرا عند تبليغ بشارة الفتح الى المعز فلم يبدأ بابلاغها الى رئيسه « المباشر » ليبلغها من جانبه الى الخليفة ، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد اليه كتبه ليعيدها من طريق جوهر اليه

ومن اصطناعه للرجال انه كان يعفو عن الشجعان من

أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة ، ومن المشهور عنه انه كان اذا لقى أحدا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه ، ولعل هذا كان سبب الاشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية ، فان الخبر الذى جاء فى كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » لأحد الرهبان يقول انه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سيفين ، ويقال فى سر ذلك انه تحدى البطرق ايرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الاشاعات ، فان الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه ، وأطاع جوهر مولاه ، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلا من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة القديس « مركوريوس » التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان) ... وقيل انه أمر باقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه ، فلم ينقذه من مصيره الا شفاعة البطرق له عند الخليفة

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من

الترحيب في مجلسه بالمتناظرين في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الاشاعة عن مدفنه في مقبـــرة الكنيسة ، ولعلها اشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين ، يوم كانت هذه الاشاعة وما اليها موئل العـــزاء في أيام الخليفة الحاكم المخبول ، لمن كان يضطهدهم من المخالفين ، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين

□

ومن تفرسه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص انه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويســتحثونه ، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء ، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر،ومنه في رواية المقريزي ان صبية عرضت في مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار « فحضر اليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتقلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فاذا هي ابنة الاخشيد محمد بن طغج وقد بلغها خبر هذه الصبية ، فلما رأتهـــا شغفتها حبا فاشترتها لتستمتع بها »

قال المقريزي : « فعاد الوكيل الى المغرب وحدث المعـز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية الى آخره فقال المعز : يا اخوانـــا ! انهضوا لمصر فان يحول بينكم وبينها شيء ، فان القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهـم

تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، وما هذا الا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم ، فانهضوا لمسيرنا اليهم .. »

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها ، ولكن المعز ـ على خلاف المعهود من سياسة أسرته ـ حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله الى مصر منعا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الاخشيديين ، وتطهيرا للأخلاق مما أصابها فى تلك الأيام وأدرك منه المعز انه نذير بزوال ملك بنى الاخشيد

□

وقدم جوهر الى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم ، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه : « ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ،فذكرتها اجابة لكم وتطمينا لأنفسكم ، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، اذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى اقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فىجوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ... ولكم على أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ... »

ووضع جوهر أساس القاهرة ، ولم يشأ المؤرخون أن

ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم - وهى شهرة صحيحة - فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلقوا فى الحبال أجراسا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب ، وان غرابا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهر الذى يطلقه المنجمون على المريخ ، لأنه كان فى معتقد الأولين اله الحروب ...!

هذه القصة « أولا » تروى عن بناء الاسكندرية

وهى « ثانيا » لا تعقل ، لأن النجوم ترصد ليلا والغربان لا تطير بالليل ، ولو طارت ليلا أو نهارا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس على جميع الاسوار ، ولو كانت الاجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب ، ولو كان تحقيق الرصد مبنيا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة الى الاجراس

ثم من قال انه غراب وهو مجهول ؟ وكيف عرفوه . والمظنون ان المهندسين هم الذين حركوا الحبال ؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير ؟

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون، وفى التنبيه الى ما فيها من الاحالة عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر ، فانهم تعودوا أن يبدأوا بتجديد المعالم والشارات

ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئا فشيئا قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه ،فشرع جوهر فى بناء مسجدالعاصمة الجديدة (سنة ٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر على اسم الزهراء فى أرجح الاقوال ، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدة ومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون ، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق ، وكلتاهما ـ أى القطائع والفسطاط ـ كانت عاصمة للقطر فى أوانها ، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلا ومقاما كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمعنا اليه

□

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لاقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم الى الاسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين اليها للتسليم عليه ثم خطبهم قائلا انه لم يقصد الى مصر طمعا فى زيادة ملك أو مال وانما قصد اليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الاسلام ، وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه ، لأن تأمين الطريق الى الحجاز كان ضمانا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها ، اذ كان القرامطة يعملون باسمها وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيعون عن

القوم انهم يقطعون طريق الحج عملا بمذهب الاسماعيليين ويزعمون ان الاسماعيليين يسقطون الحج من الفـرائض ، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم ، ولم يلبث المعز فى القـــاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطـة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه ، وزحفت جموعهم الى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشىمن عواقب تأمين الطريق ، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة حقنا للدماء وأرسل الى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه بالمال اذا تراجع وتنحى عن أصحابه ، ووعده بمائة ألف دينار ٠٠ فقبل الصفقة ، وخرج المعـز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هـــــذا بجموعه عند التقاء الصفوف ، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير ٠٠٠ ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبـة يخفيها الزعيم المخدوع جميعا عن شركائه ، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمـــــة بالاياب ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها الى غاراتهم على مصر

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فان ابنه العزيز الذى تولى الملك بعـــده كان من كفاة الملوك وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها الا عجل بقمعهـــا وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة الى نصابها ، ولكنه مات (ســـنة ٣٨٦) وقد بدأت فى أيامه دسائس القصور وســـياسة

الحريم ، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت الى حين فى ابان نضرة الدولة وزهوها ، ثم برزت وتفرعت مع ادبار الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص انسان ، لو لم يكن تاريخه خبرا يقينا لشك فيه المؤرخون أو جزموا بانكاره ، اذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقل لأول وهلة انها تصدر من انسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله

كان يعمر ويخرب ، وكان يلين ويقسو ، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة ، وكان يجيزشعائر أهل السنة وأهل الذمة ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها ، وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح ، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل ، فمن فتح دكانا بالنهار جلده ومن أغلق دكانا بالليل رماه بالعصيان ، وكان يعتق العبيد والاماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعبد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء ، وكان يخرج الى غيران الجبل فى الظلام ويختبىء فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس الى المغيب ، وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه ، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون

قال ابن خلدون : « ان حاله كان مضطربا فى الجور والعدل والاخافة والأمن والنسك والبدعة » . وقال ابن خلكان : « انه كان جوادا سمحا ، خبيثا ماكرا ، رديء

الاعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل عددا من كبراء دولته صبرا، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورا واحكاما يحمل الرعية عليها ٠٠ »

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هـذا الحاكم بأمر الله ، وبأمره ، وبأمر المأمورين والأمراء

فمن مؤرخى القبط من يقول انه مات على النصرانيـة ، ومنهم من يقول انه كان يعبـــد المريخ ويتوهم انه يراه ويتحدث اليه ، ومن مؤرخى الســنة من يقول انه ادعى الربوبية ، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم انه صعد الى السماء ليعود الى الارض فى آخر الزمان ،وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته ، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات

وفى رأينا بعد هذا ان سيرة الحاكم هى أعجب الســير وأوضح السير فى وقت واحد ٠٠٠

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق ، وهى أقلها عجبا فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هـذا الرجل انها حالة من حالات الهوس بالاسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض Mystic Hallucinosis

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعـــون بالأسرار ، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لايمانهم بالرموز واعتقادهم ان الغيب يتحدث اليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث

والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليـــه ظاهرها للعارفين ، واذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد ، فيقع فى روع المريض ان الناس يضمرون له الشر ويتعقبهم بالتجسس والاستطلاع ، وينتقم منهم للوهم العارض والشبهةالكاذبة، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المتهوسون بالأسرار الى منــــاظر الظلام ، ويستهويهم الليل بخفاياه ، وتروقهم الوحدة فى الخلوات

وليس المصاب بهذه الحالة مجنونا ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات ، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعـــه أن يبدع ابداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون

أما علة هذا المرض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم الى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس عـــلى الخصوص ، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها ، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويدا رويدا فى مقتبل الشباب

وغير «الفرويديين» يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر ، فيتـــوهم المريض انه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه ، ويحـــدث أحيانا أن ينظر الى الشىء الماثل فلا يراه ويصغى الىالصوت البين فلا يسمعه ، وقد يتفقون مع جماعة فرويد فىالرجوع بالعلة الى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطـــوها بالمسائل الجنسية

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات الى نفس الطفل الناشىء ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم ، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة ، وأول هؤلاء برجوان كان غارقا فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر، لانه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله ، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل الى استطلاعه • كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل • فاذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم وكبر وهو يصغى الى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة ، فلا عجب فى ابتلائه بتلك الآفة، آفة الهوس بالاسرار أو الولع بوساوس الغموض ، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها ، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين ، اذ قيل انهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب ، واطبقت آفة الاطلاع المضالل على آفة الاستطلاع المكبوت

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل

أعصابه من قبل الاسراف ، ولم يكن يعـاقر الخمـر أو يستطيبها بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيـذ الا بالحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بادخال السرور الى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب، وانما «عرض له كما قال الطبيب يحيى الانطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات واحتاج فى مداواته منه الى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ، وان كثرة سهره أيضا وشـغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره ، وان أبا يعقوب اسحاق بن ابراهيـم بن انسطاس لما خدمه استماله الى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها،فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب وعاد الى الامتناع من شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع الى ما كان عليه »

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس ولا يصور لنا فيها شيئا من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق ، فان طفلا يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيـط بالملوك الصغار ، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب ، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة ـ غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه أو التى ينساق فيها مختارا لانه يتوهم

انه يروض نفسه بالتقشف والتهجد ، وحمل الناس عليها والتقرب الى الله بعقاب من ينحرف عنها، فتنكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه ، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة وقصور فى العبادة، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليـــــائس وقلق الحائر وايمان المستريح الى الظنون ، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح اليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت احدى جرائر «الحريم» ودسائس القصور أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعـــــز فى عاقبة التكثـــر من الزوجات والجوارى وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشرى حتى تناولت كل شيء فى الدولة والمجتمـــع ، وكانت جرائرها آخر الأمر شرا قائما بذاته وشرا محســـوبا عليه سائر الشرور ، لأنه كان حائلا دون اتقائها ومنعها كما كان حائلا دون معالجتها بعد وقوعها

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعا لاختلاف الأحزاب فى كل حريم، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من الســـودان الى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب ، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين ولانفسهم وللقادة والحكام

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة « البيروقراطية » أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة وولاية خلفاء آخرين كالاطفال وان بلغوا مبلغ الرجال . فقد ركنوا الى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال اليهم كلما طلبوه ، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الاتاوات من الرشوة والارهاب عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال ، فان المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع ، فحق عليها القول

وقد سمى عصر الخليفة « المستنصر » بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء ، وما سمى عصره بهذا الاسم لانه صنع فيه شيئا خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) الى أن مات وهو يدلف الى السبعين ، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة ولا من الهادمين ، وانما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك ، وقد يفارقها وهو قتيل

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل

انتهاء الدولة الفاطمية ، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد ، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء ، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة ، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين : أجل الخليفة الذى عمر احدى وعشرين سنة ، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميـــدها منفردين لينقرضوا بغير عقب ، وقال المقـــريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير : « واضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان ... ومنع العاضد من التصرف حتى تبين للناس ما يريده من ازالة الدولة ... فلم يبق للعاضد سوى اقامة ذكره فى الخطبة .. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه ، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عندالعاضد غير فرس واحد فطلبه منه وألجأه الى ارساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر .. »

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين ، لانها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف ، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب ، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المشنوءة ، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه ، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه ، فرجحت كفة الاقبال وهو دائم الرجحـان ودالت دولة الزوال فشالت كفتها فى ميزان الزمان

حضارة محتضرة

اذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال ان حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد ، ولا استثناء لعهد البطالسة ، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية ، خلافا للحضارة فى أيام الفاطميين ، فان صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة ، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة ، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقيـــاس الشؤون الاجتماعية

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الاسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين ، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للاعارة أو الاطلاع

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة ، فكان فى

كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقـــه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين الى حين فيترجل ويخلع نعليه ، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم • هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين ، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحـــاضرة ، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء ، وتنقل المناظرة أحيانا الى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليهـــا ، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيهـــا ، وان خالف به اجماع الآراء

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضـــيهم من ملاحم التاريخ المنثـــور أو المنظوم ، فلم يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين ، يسمعون جمهرة الناس طرفا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية ، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر الى صلاة العشاء

وفى عهدهم أصـــلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان

وتقدمت الفنون والصناعات ، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء ، وفى النقش على الجدران والحفـــر على الحجارة الكريمة ، وشوهدت رسوم على النســـيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين ، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغاير غاية ما يبلغه فى عصر من العصور ، وصيغت التماثيل من المعـــادن والجواهر

فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعـــدن النفيس بفضل الصناعة والاتقان

وقد ألف الوصافون اذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة ، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة ، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والابدع من نسخة الخيال

وكانت التجارة مددا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد : تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات ، أو تأتى ببدائع المصنوعات وتعـــود بما هو أبدع وأغلى ، دواليك فى مواسم العـــام كله لا تنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية ، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت اليها ، فبعـد الغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز الى القاهرة عادوا الى الاحتفال به وأضافوا اليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد وأعياد الربيع ، وأحصى من مواسم العـــام غير ذلك رأس السنة ويوم عاشـــوراء ومولد النبى ومولد الامام وموالد آل البيت ، وليالى الوقود وهى ليال من رجب وشـــعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار ، ولا سيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد ، وعود الخلفـــاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الاسمطة ويخرجوا اليه يحيـــونه

ويتلقون منه التحية ، وأصبح الوافدون الى مصريحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والاسمار

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب انها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الاعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة . بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات ، يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم،ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم ويعلنون عنها ويدلون عليها ، ومن هذه المواكب ما بقى الى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر ، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للاموات والزيارة للاحياء

لا جرم كانت مصر ابان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد ، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان ،وأولهم السياح والشعراء

فما من رحالة أنجبه العالم الاسلامى لم يتخذ من مصر مقاما أو مزارا فى تلك الايام ، وما من قصر من قصور الملك فىالمشرق والمغرب عمر فى ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور الفاطمية من الشعراء والادباء

وأوصى الخلفاء والامراء شعراءهم بالايجاز لازدحامالقالة وكثرة المقال ، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال انه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء ، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا

لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال :

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة
وان خالفونى فى اعتقاد التشيع

وهو الذى بخع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملا فى نصرتهم واستعادة مجدهم ، فهو أحق النـــــاس برثائهم ، وقصيدته التى قيل فيها انها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور :

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة
على فجيعتهـــا فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفهـــا
من المكارم ما أربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خاليــة
من الوفود وكانت قبلة القبـل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد
من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت
رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ما تراءت من مكارمكم
حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم
واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست
ورث منهـا جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى يوم الخليج لكم
يأتى تجملكم فيه على الجمـــل
وأول العام والعيـدين كان لكم
فيهن من وبل جود ليس بالوشل
والارض تهتز فى يوم الغدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية
مثل العرائس فى حلى وفى حلل
وما حملتم قرى الاضياف من سعة الأ
طباق الا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببـر أهـل ملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ
ـيف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت
منه الصلات لأهل الارض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخـــرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبى لهم أبدا
ما أخر الله لى فى مدة الأجـــل

ولم يؤخر له فى الأجل ، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة وانقضى أجل شاعرها فى سـنة تسع وستين وخمسمائة

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير »

نفرتيتى ربة الجمال والتاج
تأليف صوفى عبد الله

حديث رمضان
تأليف الامام محمد مصطفى المراغى

عبقرية خالد
تأليف عباس محمود العقاد

الذئب الاغبر مصطفى كمال
تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج

كليوباترة فى خان الخليلى
تأليف محمود تيمور

الاسلام دين الفطرة
تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف
تأليف ادوارد سبنسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية
تأليف عبد الرحمن الرافعى

القائد الاعظم محمد على جناح
تأليف عباس محمود العقاد

زينب
تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابى (جزء أول)
تأليف الزعيم احمد عرابى

مذكرات عرابى (جزء ثان)
تأليف الزعيم أحمد عرابى

عبقرية عمر
تأليف عباس محمود العقاد

آمنة بنت وهب
تأليف الدكتورة بنت الشاطىء

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف ما عدا الكتب التى نفدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

الكتاب القادم :

عصا الحكيم

فى الدنيا.. والآخرة

بقلم توفيق الحكيم

وكلاء مجلات دار الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت (تليفون ٧٨ـ١٧) صندوق بريد ١٠١٢ ـ أو باحدى وكالاتها فى الجهات الأخرى (الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى تتولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى ـ صاحب المكتبة العصرية ـ ببغداد

اللاذقية : السيد نخله سكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص٠ب٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi, Rua Varnhagem 30, Caixa Postal 3766, Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400. Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street, P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

تناول الكاتب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد سيرة السيدة فاطمة الزهراء ، فى نشأتها، وأخلاقها ، وميراثها الكريم عن أبويها ، وفى زواجها ، وبلاغتها ، وحياتها العامة ، ثم فيما لها من شخصية عظيمة

ولما كان ملك الفاطميين فى المغرب ومصر قام على الانتساب اليها ، فقد تناول المؤلف الدولة الفاطمية من هذه الناحية ، وشرح أثر هذا الانتساب فى تلك الدولة وكيف اعتمدت عليه فى بناء مجدها ، حتى استطاعت أن تفتح مصر وتقيم بها دولة مستقلة عاشت مائتى عام

ولم يسبق أن صدر كتاب خاص بحياة فاطمة الزهراء ومكان الصلة بينها وبين المنتسبين اليها فى دعوات الخلافة التى ظهرت منذ صدر الاسلام ، وغيرت من مجرى التاريخ

وقد توخينا فى سلسلة « كتاب الهلال » العناية بترجمة الشخصيات الاسلامية بوجه خاص ، لأنها مصدر القوة فى تاريخ الاسلام ، بل فى تاريخ الشرق العربى كله ، وقد سارت دار الهلال على هذه السنة منذ حياة مؤسسها المرحوم جرجى زيدان